فنون الشرق الأوسط

فى الفترات الهيلينستية - المسيحية - الساسانية

تأليف
نعمت إسماعيل علام



دار المعارف



يضم هذا الكتاب ثلاثة طرز فنية جديدة ، ظهرت فى منطقة الشرق الأوسط ذات التراث الحضارى العظيم ، بعد انتصار الغرب على الشرق لأول مرة

فمما لاشك فيه أن بلاد الشرق الأوسط القديم وممتلكاتها فى المنطقة ، قد تأثرت بأسلوب الفنون الإغريقية الهيلينية التى أتى بها الفاتح الإسكندر المقدونى

وكان للدين المسيحى الذى إنتشر فى المنطقة فى فترة حكم الرومان أثر واضح فى ثقافات وعادات شعوبها انعكس أيضاً على فنونها .

كما أضاف الفرس الساسانيون طرازا فنيًا جديداً انتشر فى المنطقة نتيجة للحروب التى قامت بينهم وبين الرومان حكام المنطقة .

وتساعد اللوحات الملونة والصور التى تصاحب النص القارئ على تذوق الأعمال الفنية التى انتشرت فى المنطقة .




٠١٩٦٩٨/٠١

فنون الشرق الأوسط
فى الفترات
الهيلينستية - المسيحية - الساسانية

تأليف

نعمت إسماعيل علام

ماجستير تاريخ الفنون كلية الآداب . جامعة نيويورك
أستاذة تاريخ الفن . المعهد العالى للتربية الفنية

الطبعة الرابعة



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .
هاتف: ٥٧٧٧٠٧٧ – فاكس: ٥٧٤٤٩٩٩ E-mail: maaref@idsc.net.eg

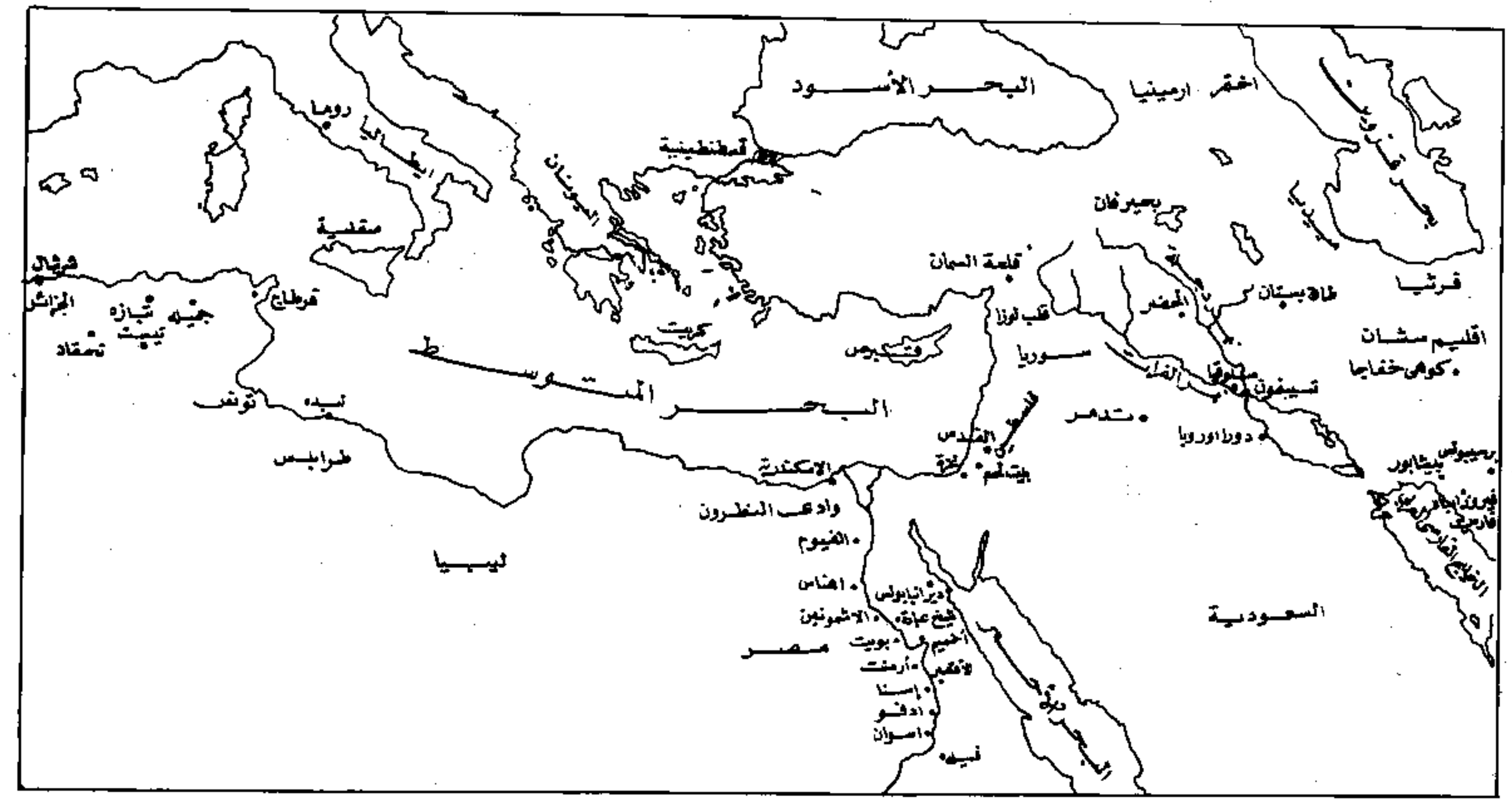
وقل رب زدني علماً

صدق الله العظيم

الإهـــــــداء

إلى ذكرى والدي ..

خريطة الشرق الأوسط من الغزو الإغريقي حتى الفتح الإسلامي



تقـديم

يلاحظ القارئ للجزء الأول من فنون الشرق الأوسط القديم أن المدنيات القديمة قد خلفت لنا تراثاً عظيماً من الحضارة والفنون ، وأن ديانات شعوب العالم القديم كانت فى أغلب الأوقات حقلا يانعاً للفنون . ولم تنطفئ شعلة فنون شعوب هذه المنطقة حتى فى أحلك الأوقات بعد أن تم إخضاعها للإمبراطورية الفارسية الأكمينية آخر الحكام الشرقيين لمنطقة الشرق الأوسط .

وعندما أراد الفرس أن يحققوا مزيداً من الانتصارات بغزوهم المدن الإغريقية الواقعة فى آسيا الصغرى ، بدأت بذلك سلسلة طويلة من الصراع بين الشرق والغرب ، انتهت فصوله بخاتمة فجع فيها العالم القديم . حيث اجتاح الإسكندر المقدونى الإمبراطورية الفارسية ، وانتقلت ممتلكات الإمبراطورية إلى الفاتح الإغريقى ، وبذلك أصبح الشرق الأوسط وفنونه جزءا من تاريخ الحضارة الإغريقية الهيلينية .

وفى عهد خلفاء الإسكندر الذين سيطروا على الشرق الأوسط المقدونيين والرومان ، داومت الثقافة الإغريقية الرومانية على غزو فكر الشرق الأوسط وعاداته وفنونه ، ونتج من امتزاج فنون الشرق مع الفنون الإغريقية الرومانية (الهيلينية) طراز من الفن يختلف عن الفنون الهيلينية فى الغرب وعن الفنون الشرقية القديمة .

وفترة حكم الرومان للشرق لها أهمية كبيرة حيث ظهر فى خلالها الديانة المسيحية ، ولقد أثر هذا الدين الجديد الذى انتشر فى أنحاء الشرق والغرب على ثقافات وعادات شعوب المنطقة مما نتج عنه ظهور فنون ذات طابع جديد مختلف .

لذلك سيتضمن هذا الجزء فنون الحضارات التى تلت سقوط بلاد منطقة الشرق الأوسط على يد الإسكندر المقدونى . وهى الفنون الهيلينية والفنون المسيحية وسنتتبع هذه الفنون التشكيلية المختلفة من عمارة ونحت وتصوير . . إلخ .

ولقد لعبت فارس دوراً رئيسياً فى سياسة وفنون تلك المنطقة فى العصر المسيحى وكانت روائع بعض الفنون البيزنطية ثمرة للمزج بين أفكار الرومان وأساليب الشرق .

وكان من نتيجة انتقال أفكار الفرس إلى الفن الدينى البيزنطى تغيير فى أسس ومفاهيم المقاييس الجمالية للفن البيزنطى الذى ساد المنطقة.

ولقد رأيت أن أعطى اهتماما أكبر لزخارف المنسوجات القبطية التى تعتبر بحق أجمل الفنون القبطية الشعبية المصرية.

ولايسعنى فى النهاية إلا تقديم شكرى لكل من تقدم إلىّ بمساعدة عاونتنى على إتمام هذا الجزء.

وأخص بالذكر المتاحف التى أمدتنى ببعض الصور؛ المتحف المصرى والقبطى بالقاهرة.

نعمت إسماعيل

يوليه ١٩٩١

فهرس

صفحة

تقديم ٥

الباب الأول: العصر الإغريقى الرومانى ١١

تمهيد تاريخى ١١

الفصل الأول: مصر ١٥

أولا البطالمة [تمهيد تاريخى - العمارة - النحت - النقش على الحجر - الفنون الصغيرة] ١٥

ثانيا الرومان [العمارة - النحت - التصوير - الفنون الصغيرة] ٣٢

الفصل الثانى: سوريا ٤٠

السلوقيون والرومان [تمهيد تاريخى - العمارة - النحت] ٤٠

مدينة تدمر ٤٢

مدينة دورا أوربا ٤٥

مدينة البتراء ٤٨

الفصل الثالث: الجزر العربية ٥٠

شبه الجزيرة العربية ٥٠

الكويت والبحرين ٥٣

الفصل الرابع: شمال أفريقيا ٥٧

الباب الثانى: العصر المسيحى فى الشرق ٦٥

تمهيد تاريخى ٦٥

الفصل الأول: القسطنطينية - الفن البيزنطى ٦٨

[العمارة - النحت على الحجر - التصوير: (الفسيفساء، التصوير

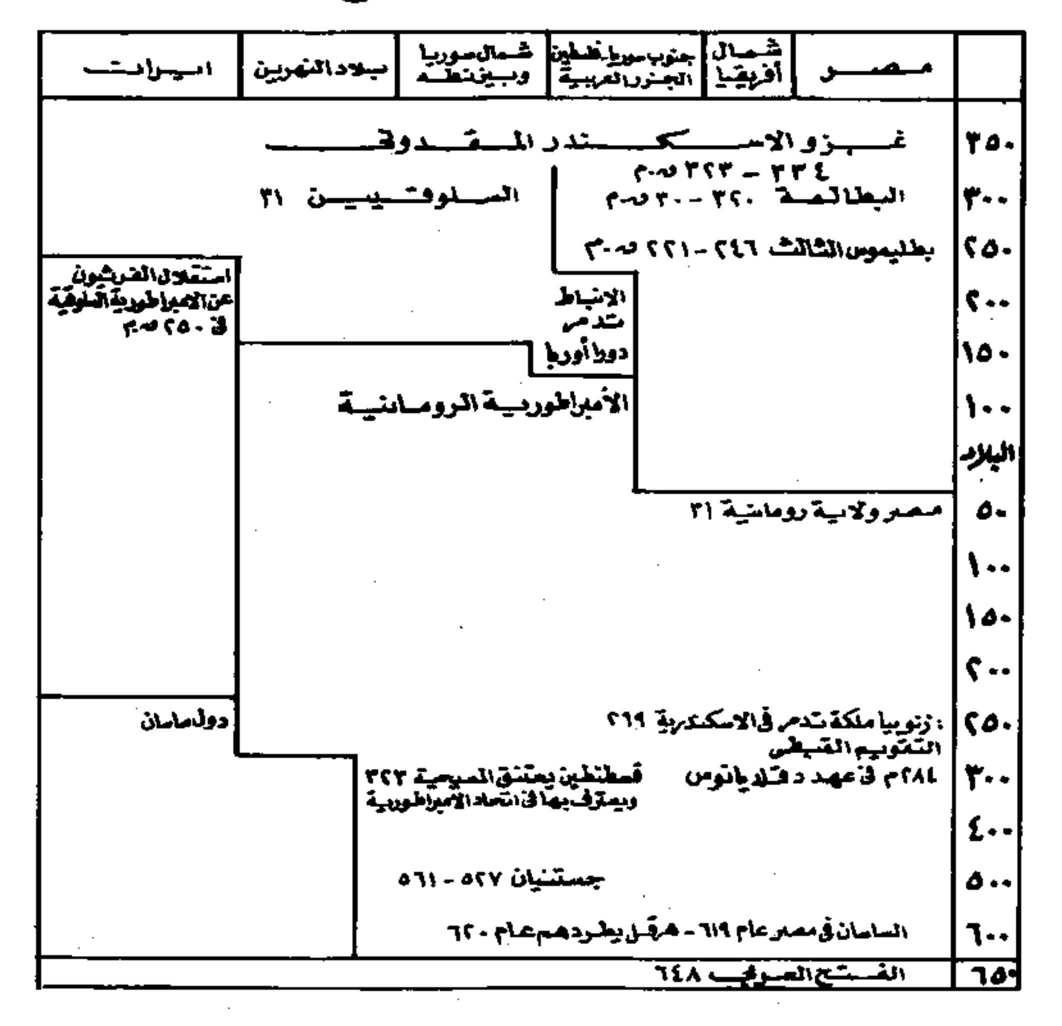
صفحة

الجدارى، الأيقونة، تصوير المخطوطات) العاج – المعادن –
المنسوجات] ٦٩
الفصل الثانى: مصر – الفن القبطى ٩٥
[تمهيد تاريخى – العمارة – النحت على الحجر – التصوير – النحت
على الخشب – الفنون الصغيرة –(العاج – المعادن –
المنسوجات)] ٩٥
الفصل الثالث: سوريا وفلسطين – الفن المسيحى ١٣١
[تمهيد تاريخى – العمارة – النحت على الحجر – التصوير –
المخطوطات – الفنون الصغيرة – العاج] ١٣١
الفصل الرابع: شمال أفريقيا ١٣٩

الباب الثالث: إيران ١٤٣
تمهيد تاريخى ١٤٣
الفصل الأول: الدولة الفرثية ١٤٥
[تمهيد تاريخى – العمارة – النحت على الحجر – التصوير الجدارى] ١٤٥
الفصل الثانى: الدولة الساسانية ١٥٢
[تمهيد تاريخى – العمارة – النحت الكامل – النحت البارز – الفنون
الصغيرة – المعادن – المنسوجات] ١٥٢
المراجع ١٦٦

لوحة زمنية لبلاد الشرق الأوسط

من الغزو الإغريقي ٣٣٤ ق.م حتى الفتح الاسلامي ٦٤١



البـاب الأول

العصر الإغريقى الرومانى

فتح الإسكندر المقدونى لبلاد الشرق – قيام الإمبراطورية الرومانية

الفن الهيلينستى

تمهيد تاريخى :

ظهر الإسكندر المقدونى على المسرح العالمى فى النصف الأول من القرن الرابع قبل الميلاد . وكان مجيئه سبباً فى ختام آخر فصل فى تاريخ شعوب العالم القديم وبداية فصل آخر جديد امتزج الشرق فيه مع الغرب ، تم كل ذلك فى فترة قصيرة .

بعد أن تمكن الإسكندر من استرداد المستعمرات الإغريقية بآسيا الصغرى من الفرس فى عام ٣٣٤ ق . م ، اتجه شرقاً لغزو ممتلكات الإمبراطورية الفارسية ، فاستولى على صور وفلسطين عام ٣٣٢ ق . م ، ثم اتجه إلى مصر فى العام نفسه وفتحها دون مقاومة تذكر ، واستولى على سوريا والعراق عام ٣٣١ ق . م ، وتمت له السيطرة على إيران بعد أن هزم دارا الثالث آخر ملوك الفرس الإكمينيين فى موقعتى أسوس عام ٣٣٣ ق . م وأربل فى عام ٣٣٠ ق . م وامتدت فتوحاته شرقاً حتى بلاد الهند ، واتخذ بابل عاصمة لمملكته الجديدة .

بعد أن أصبح الإسكندر المقدونى الوريث الشرعى للإمبراطورية الفارسية ، بدأ ينشر الهيلينية الإغريقية فى العالم الشرقى . وقد مهد الطريق لنشر الحضارة والثقافة الهيلينية عن طريق صهر الروح الهيلينية والروح الشرقية فى بوتقة واحدة . وتوصل إلى هذا المزج عن طريق تأسيس مدن جديدة على الطراز الهيلينى فى وادى الفرات وفى مصر وعلى ضفاف السند ، أسكنها الإغريق والمقدونيين . وكان أشهر هذه المراكز الهيلينستية مدينة الإسكندرية فى مصر التى نافست شهرتها فى تلك الفترة شهرة أثينا . ولقد تقرب إلى الشعوب المغلوبة

عن طريق الاعتراف بدياناتها ، وتزوج من أميرة فارسية اسمها « روكسانا » وشجع قواده على الزواج من هذه الشعوب .

توفى الإسكندر فى مدينة « سوسا » فى عام ٣٢٣ ق . م ، وبذلك بدأ النزاع بين قواده على تقسيم الإمبراطورية الهيلينستية الشرقية . وقسمت فى النهاية إلى ثلاثة أقسام : مصر وكانت من نصيب بطليموس ، سوريا وبلاد النهرين وإيران وكانت من نصيب « سلوقس » ، فرغاموس وكانت من نصيب « أتالوس » . وبقيت مقدونيا تحت حكم أنتيجونيس .

اتبع خلفاء الإسكندر سياسته فى نشر الحضارة الهيلينية فى البلاد التى استقلوا بحكمها ، وأقاموا مدناً جديدة كمراكز لهذه الثقافة ، اشتهر منها سلوقية على نهر دجلة وأنطاكية على نهر العاصى ، كما ظهرت شهرة فرغا موس بآسيا الصغرى كإحدى عواصم العالم الهيلينستى .

تميز العصر الهيلينستى الجديد الذى خضعت فيه بلاد الشرق الأوسط لعائلات مقدونية مستقلة ، ببدء ظهور صراع بين هذه البلاد التى كانت متحدة قبل ذلك . فتكثر المنازعات بين البطالسة وبين السلوقيين ، وبين السلوقيين والفرثيين ملوك إيران . إلا أن هذه الخلافات لم تمنع اشتراك هذه المناطق فى التأثر بالأساليب الثقافية الإغريقية .

تزعمت روما فى تلك الفترة البلاد الغربية بعد انتصارها على قرطاجنة . وكدولة عظمى تجارية كان عليها أن تحافظ على السلام فى البحار المحيطة . لذلك تدخلت فى سياسة الشرق الهيليني . فتحالفت مع الدول التجارية المسالمة مثل مصر ورودس وفرغا موس وحاربت الأسرة السلوقية عام ١٩٠ ق . م واستولت على ممتلكاتها . وتمت لها السيطرة على الشرق بعد أن بسطت نفوذها على مقدونيا ومصر وآسيا الصغرى ثم سوريا .

صارت هذه الممالك الهيلينية الإغريقية بعد أن أصبحت ولايات رومانية منطقة حاجزة بين الدولة الرومانية وبين الدولة الفرثية التى استولت على حكم إيران فى عام ٢٥٠ ق . م بعد أن طردت السلوقيين منها . وكان الجزء الغربى من بلاد الشرق الاوسط فى نهاية القرن الأول ق . م . جزءاً من الإمبراطورية الرومانية وكان الجزء الشرق — إيران وبلاد النهرين — خاضعا لحكم الأسرة الفرثية .

تأسست الإمبراطورية الرومانية فى عهد إكتافيوس (٣٠ ق . م – ١٤ م) بعد اتساع ممتلكات روما فى الشرق حتى حدود الفرات ولقب « أغسطس » . وتولى الحكم بعده أفراد من أسرته أشهرهم نيرون (٥٤ – ٦٨ م) وتراجان (٩٨ – ١١٧ م) الذى أضاف أرمينيا وبلاد النهرين إلى الإمبراطورية إلا أن حدود الدولة انكمشت مرة ثانية إلى نهر الفرات فى عهد خليفته هادريان (١١٧ – ١٣٨ م) . وكثرت الحروب مع البرابرة فى عهد ماركوس أورليوس (١٦١ – ١٨٠ م .) .

كان لروما فى تلك الفترة وظيفة قيادية فى تاريخ العالم تحددت خطوطها ، ففى الغرب أخذت على عاتقها توطيد دعائم القانون والمدنية بين شعوب الغرب البرابرة على حين اقتصرت رسالتها فى الشرق على المحافظة على بنيان المدينة الهيلينسية التى تفوق مدنيتها ، والتى أقامها الإسكندر وخلفاوه فى بلاد الشرق الأوسط .

ضعفت الإمبراطورية الرومانية ضعفاً شديداً بعد موت ماركوس أورليوس ، وساءت الأمور فى عهد كـركلا (٢١١ – ٢١٧) م وحاول الإمبراطور دقلديانوس ٢٨٤ – ٣٠٥ م إصلاح ذلك بتقسيم الإمبراطورية الكبيرة بين حاكمين . الجزء الشرقى اختص هو به ، وكان مركز حكمه روما ، والجزء الغربى تركه لحاكم آخر مركز حكمه ميلانو . إلا أن هذا النظام زال بوفاته ، حيث وحد الإمبراطور قسطنطين ٣١٣ – ٣٣٧ م حكم الإمبراطورية مرة ثانية فى العاصمة روما .

انتقل مركز حكم الإمبراطورية الرومانية الموحدة إلى الشرق بعد أن آمن قسطنطين بالدين المسيحى وأسس عاصمته الجديدة وأسماها القسطنطينية .

لم يكن لسيادة الرومان فى منطقة الشرق الأوسط أثر حضارى ظاهر ، فلم يحاول الرومان الذين كانوا معجبين بالحضارة الإغريقية تغير أى شىء من الثقافة الهيلينستية التى وجدوها فى البلاد . وبذلك لم تكن مهمة روما الخلق وإنما كانت المحافظة على استمرار التقاليد الهيلينستية . كما استمر استخدام اللغة الإغريقية .

وقد تعلم الرومان الارستقراطيون من الإغريق تقدير الآداب وتذوق الفنون . وحمل قوادهم إلى روما روائع أمثلة النحت الإغريقى ليزينوا بها منازلهم . ولم يقتصر اهتمام الرومان على الاحتفاظ بآثار الماضى التذكارية بل نجد أنهم شجعوا الفنانين الإغريق على ابتكارات

جديدة فى الفن ، حيث إن الرومان لم يصبحوا قط فنانين مثل الفنانين الإغريق

كان لانتصار الإسكندر المقـــدونى على دارا الثالث الفارسى (ش ١) أثر كبير فى فنون الشرق الأوسط القديم . حيث إن الفن الهيلينى الذى ظهر فى بلاد الإغريق منذ القرن الرابع ق . م . كان يعبر عن النظرة إلى الحياة التى تغيرت وأصبحت واقعية . . وكان يتميز بإتقان الصنعة وتصوير العواطف الإنسانية التى تبرز الخصائص الفردية . ونتج عن امتزاج الفن الهيلينى الإغريقى فى خلال الحقبتين المقدونية والرومانية مع الفنون المحلية القديمة طراز فنى جديد عرف بالطراز الهيلينستى . ولقد ازدهر هذا الطراز فى الأقاليم التى تأثرت بالهيلينستية . ولقد نشأت ثقافة وفنون هيلينستية فى الإسكندرية وسلوقية وأنطاقية وفى فرغا موس ورودس ، وامتدت هذه الثقافة وفنونها إلى الولايات التابعة للفترة الإغريقية الرومانية فى شمال أفريقيا وفى الجزر العربية .

ولقد كان للإسكندرية دور هام فى ازدهار الحضارة والفنون فى العصر الهيلينستى ، وزارها كثير من المؤرخين أشهرهم «إسترابو» الذى زارها عام ٢٤ ق . م وأطلق على المدينة «خزان عالمى» لما حوته من أجناس متعددة : إغريقيين ، مقدونيين ، مصريين ، نوبيين وجالية يهودية كبيرة .

(شكل ١) فسيفساء منقولة من أرضية قصر فاونر بمدينة بومبى إلى متحف نابولى . تصور معركة حربية بين داريوس الثالث واسكندر المقدونى . وترجع إلى القرن الأول أو الثانى ق . م . منقولة عن تصوير جدارى من عهد الإسكندر ، القرن ٣ ق . م .



الفصل الأول

مصر

البطالمة (٣٠٥ - ٣٠ ق . م)

كانت مصر ولاية فارسية عندما وصل الإسكندر إلى حدودها الشرقية فى عام ٣٣٠ ق . م . ولم يقاومه المصريون تخلصاً من تعسف حكم الفرس الأكمينيين . وتقرب الإسكندر إليهم باحترام آلهتهم ، فقدم القرابين إلى أبيس وبتاح عندما وصل إلى منف ، وإلى آمون عندما زار معبده الموجود بواحة سيوه . وتوّجه الكهنة ابناً لآمون تبعاً للتقاليد المتبعة مع فراعنة مصر . واتخذ شعاره قرنى الكبش المصرى المقدس ، ومن ذلك عرف باسم « إسكندر ذى القرنين » . وشيدت الإسكندرية فى عهده فى عام ٣٢٢ق . م بجوار قرية راقودة المصرية .

وبعد وفاته حكم بطليموس الأول مصر فى أول الأمر بصفته والياً من قبل الإغريق ، إلا أنه استقل بالحكم بعد فترة وحكم باسم ملك مصر فى عام ٣٠٥ ق . م ، واستمرت أسرته فى حكم مصر إلى أن اندمجت فى الإمبراطورية الرومانية عام ٣٠ ق . م بعد وفاة آخر حكامها كليوبترة السابعة .

حكم البطالسة مصر على مناهج قدماء المصريين بالرغم من ظهور العنصر الإغريقى بكثرة فى البلاد وبخاصة فى العاصمة الإسكندرية . وحافظوا على سياسة الإسكندر ، واكتسبوا حب المصريين بالتقرب إلى آلهتهم . وأصبحت الإسكندرية فى عهد بطليموس الثانى ٢٨٥ - ٢٤٧ ق . م . والثالث ٢٤٨ - ٢٢٣ ق . م . من أكبر مراكز الحضارة الهيلينستية ، كما تفوقت عليهم بفنونها وأصبحت مهبط المعارف والفنون ، وأخذت المركز الثانى بعد أثينا فى الحضارة والثقافة الإغريقية .

وتستدعى هذه الفترة النظر بمؤلفاتها التاريخية . حيث كلف بطليموس الثانى الكاهن المصرى مانيتون بكتابة تاريخ ملوك مصر القدماء ، وشيدت فى عهده مكتبتان

عظيمتان «دار الكتب» و «دار المتحف» وكان يؤمها العلماء الإغريق من أنحاء العالم الهيليني . ومن أمثال إقليدس المهندس وأرشيميدس العالم .

وعندما ضعف الحكام البطالسة وكثرت منازعاتهم فى عهد بطليموس الخامس[1] طلب حماية الرومان لحكمه فبسطت الجمهورية الرومانية حمايتها على مصر عام ١٦٨ ق . م وحاربت أعداءها السلوقيين فى الشرق . وكان من نتائج ذلك أن اشتبك البطالسة فى حروب الأحزاب القائمة فى روما . ولما لجأ إلى مصر ، طارده يوليوس قيصر فى عام ٤٨ ق . م . وكان ذلك فى عهد كليوباترة ، السابعة التى أحبها القائد الرومانى أنطونيو . وقام بينه وبين أوكتافيوس صديقه منازعات لمصلحة المملكة الإغريقية انتهت بانتصار أكتافيوس فى واقعة أكتيوم البحرية عام ٣٠ ق . م ، وبانتحار كليوباترة . وصارت مصر منذ ذلك التاريخ ولاية رومانية حتى الفتح العربى فى القرن السابع الميلادى .

وبالرغم من أن الهيلينستية سادت فى ممتلكات الإسكندر بعد موته فإن حماس البطالسة فى نشر رسالة الهيلينة فى ممتلكاتهم لم يكن كافياً . واقتصر ظهور الفن الهيلينستى فى مصر على الإسكندرية العاصمة .

كان البطالسة يعيشون على الطريقة الإغريقية فى حياتهم الخاصة إلا أنهم آمنوا بالديانة المصرية القديمة واتبعوا تقاليدها . لذلك ساد الفن الإغريقى الهيلينى المرتبط بالشئون الدنيوية جنباً إلى جنب مع الفن المصرى القديم المتعلق بالنواحى الدينية . وانتشرت آثار الفن الأول فى الإسكندرية على حين انتشر الفن الدينى فى مصر العليا .

العمارة :

خططت الإسكندرية فى عهد الإسكندر على أسلوب المدن الإغريقية وقامت بها العمائر منذ إنشائها حتى آخر عهد بطليموس الثانى الذى أقام منارة عالية لإرشاد السفن ، كما شيد بالعاصمة المكتبتين الشهيرتين . وشيد بطليموس الرابع ٢٢٢ - ٢٠٥ ق . م معبداً للآلهة سيرابيس وأزيس .

(١) كتب حجر رشيد فى عهد هذا الحاكم .

ومنارة الإسكندرية (ش ٢) التى كانت تقع فى الجزء الشرقى من جزيرة فاروسى ، اعتبرت فى الماضى إحدى عجائب العالم القديم ، وتتكون المنارة من ثلاثة طوابق : الأرضى وقاعدته على هيئة مربع وارتفاعه حوالى ستون مترا ، والثانى على هيئة مثمن وارتفاعه ثلاثون مترا ، أما الطابق الثالث فكان أسطوانى الشكل يعلوه مصباح ، ويعلو قبة المنارة تمثال إله البحر بوسايدون .

وكانت المنارة سليمة حين دخل العرب مصر ، ورممت فى عهد ابن طولون ودمرها زلزال عام ١٣٠٧ .

أما المكتبتان « دار الكتب » و « دار المتحف » فلا نعرف شيئا عن تخطيطها حيث اندثرتا إثر حريق . ولقد كان لها شأن كبير فى نشر الثقافة فى أنحاء الإمبراطورية الرومانية وذلك بفضل ما حوته كل منهما من كتب ثمينة .

فالمكتبة مثلا كانت تحوى فى عهد بطليموس الأول مائتى ألف مجلد ، وفى عهد بطليموس الثانى حوالى أربعمائة ألف فى شتى المجالات . وزاد العدد فى عهد بطليموس الثالث فبلغ حوالى سبعمائة ألف مجلد . إلا أن هذه المكتبة العظيمة أصابها الاضمحلال إثر الاحتلال الرومانى لمصر . أما متحف الإسكندرية الذى كان ملحقا بالقصر الملكى فكان يفد إليه العلماء والباحثين ليتفرغوا للبحث فى مراجعه وكتبه .

كما شيد هذا الملك واجهة بوابة« خنسو » فى معبد الكرنك وأتم معبداً للإلهة إيزيس فى جزيرة فيلة ومعبدا لأوزوريس فى كانوب . ولقد امتد تأثير الفن المصرى إلى ليبيا فى عهده بعد زواجه من برينيكى أميرة برقة التى ضمها إلى حكمه .

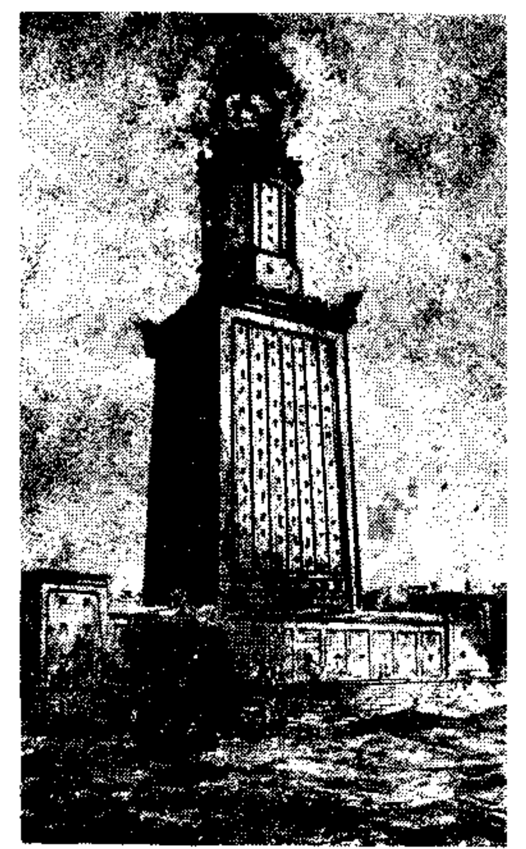
كذلك وجدت مكتبة فرعية ملحقة بمعبد الإله سيرابيس الذى أقامه بطليموس الرابع فى السيرابيوم . وقام بتصميم هذا المعبد مهندس إغريقى لذلك كان محاطا بالأعمدة المرتفعة من الجهات الأربع على غرار طراز المعبد الإغريقى ، كما تصدر الحجرة الرئيسية بالداخل تمثال الإله سيرابيس[1] .

وإذا كان البطالمة قد تقربوا إلى المصريين عن طريق احترام عقائدهم

---

(١) نحت الإله المصرى سيرابيس على هيئة عجل أو على هيئة زيوس كبير آلهة الإغريق .

(شكل ٣) الفناء المكشوف بمعبد إدفو ، ويقف بجوار مدخل القاعة المغطاة تمثال الإله حورس ، ويلاحظ تيجان الأعمدة المركبة والنخيلية . العصر البطلمى .



(شكل ٢) رسم للفنارة الإسكندرية كما كانت قبل زوالها .



وتقديسها ، فهم بذلك اتبعوا الأسلوب الذى سلكه إسكندر المقدونى الذى أقام مقصورة للإله آمون بمعبد الأقصر عندما رممه بعد غزوه لمصر.

اهتم البطالسة الذين آمنوا بالديانة المصرية بإقامة معابد للآلهة المصرية على نمط المعابد التى وجدوها بالوجه القبلى ، واقتبسوا كثيراً من معابد العهد الصاوى . فشيدوا معابد فخمة فى مدن الوجه القبلى : أدفو ، دندرة ، إسنا ، كوم امبو ، فيلة . وأحسن نموذج لدراسة المعابد البطلمية هو معبد أدفو الذى شيده بطليموس الثالث .

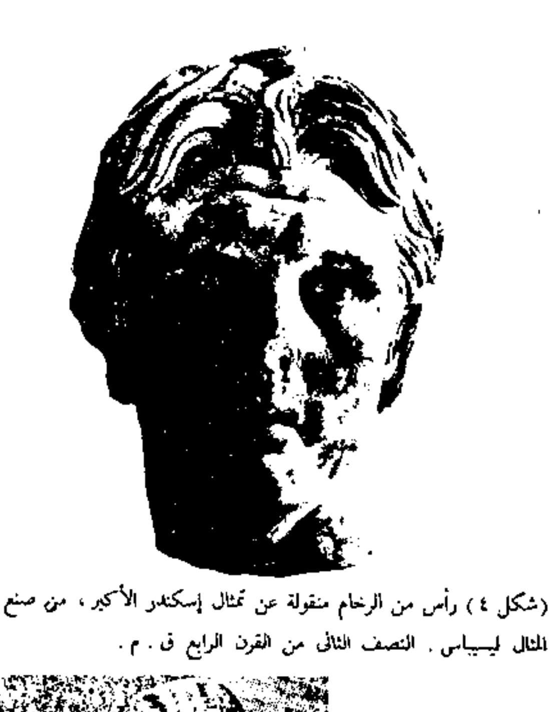
صمم هذا المعبد على النمط التقليدى المتبع فى المعابد المصرية ، أى طراز المعبد المستطيل الذى تقع أجزاؤه على محور واحد مستطيل . حيث يؤدى المدخل الذى يتوسط الواجهة إلى الفناء المكشوف (ش ٣) ثم إلى القاعة المغطاة ذات الأعمدة التى تنتهى بقدس الأقداس . وتتميز أعمدة هذا المعبد بالضخامة ، كما ظهرت به من جديد الأعمدة النخيلية التى اختفت فى عمارة الدولة الحديثة . كما نرى فى فناء المعبد تمثال الإله حورس الذى شيد المعبد من أجله .

النحت :

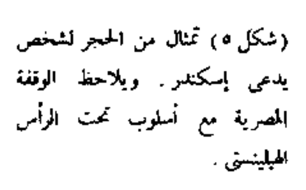
التحق بيلاط الإسكندر فى فترة إقامته بالشرق الأوسط المثال الإغريقى « ليسيباس » ويقال إنه قام بعمل تماثيل شخصية كثيرة له . ويتضح من إحدى هذه التماثيل التى تنسب له (ش ٤) ظهور الطابع الهيلينى الذى يتميز بالحيوية والتعبير .

وقد شجع البطالمة المثالين الذين يقومون بأعمال تبعاً للتقاليد المصرية ، واستطاع المثالون المحليون أن يكوّنوا طرازاً إغريقيًّا خاصًّا بهم ، فنجد أن التماثيل التى نحتت للمعابد والمقابر كانت استمراراً للأسلوب المصرى القديم مع ظهور التأثير الأغريقى . ومن التماثيل التى يظهر بها اختلاط الطرازين معاً ، تمثال عثر عليه بالكرنك (ش ٥) يوجد حاليًّا بالمتحف المصرى بالقاهرة . ونلاحظ أن رأس التمثال الذى يصور شخصية إغريقية قد نحت بالأسلوب الإغريقى المعبر بالرغم من الوقفة والزى المصرى .

إلا أن عملية خلط الأساليب لا تستمر لفترة طويلة ، وذلك لتعذر مزج الأسلوب المصرى المتزن بالأسلوب الهيلينى المعبر للاختلاف الشديد الموجود بين أسلوبهما فتظهر



(شكل ٤) رأس من الرخام منقولة عن تمثال إسكندر الأكبر، من صنع المثال ليسيباس. النصف الثانى من القرن الرابع ق. م.



(شكل ٥) تمثال من الحجر لشخص يدعى إسكندر. ويلاحظ الوقفة المصرية مع أسلوب تحت الرأس الهلينستى.



(شكل ٦) تمثال من الحجر لبطليموس الحادى عشر فى الوقفة المصرية. متحف الفاتيكان.

بعد ذلك تماثيل منحوتة إما بالأسلوب المصرى (ش ٦) أو بالطابع الإغريقى (ش ٧) ، وذلك لأن كثيراً من فنانى أثينا هاجروا إلى بلاط البطالمة[١] فى تلك الفترة واستوطن معظمهم الإسكندرية وأنتجوا طرازاً إغريقيًّا خالصاً .

وقد كانت الإسكندرية فى عهد البطالمة مركزاً رئيسياً من مراكز النحت الهيلينستى ، وكان إنتاجها ينافس المراكز الهيلينستية الأخرى . وذكر أن بطليموس الرابع قد أمر بصناعة تمثال للإله سيرابيس ليوضع فى معبده ، وأن هذا التمثال الذى يرمز للعالم الآخر كان مثالا للقوة والجمال ، ويظهر على وجهه مسحة من الرقة بالرغم من الإحساس بالرهبة والجلال الذى يشعر بهما الناظر إليه . وكان ملوناً باللون الأزرق ، وعيناه مرصعتان بجوهرتين تلمعان فى ظلام المعبد . ويعلو رأس التمثال مكيال قمح يرمز لمصر التى كانت تعد مركزاً رئيسيًّا لإنتاج الغلال . ويعتقد مؤرخو الفنون أن هذا التمثال كان من عمل المثال الإغريقى بارياكس الذى تتلمذ على يد المثال سكوباس .

عثر أيضاً على تماثيل من معبد سيرابيس فى منف كانت فى الغالب تصور الآلهة المصرية : آمون ، إزيس ، سيرابيس (ش ٨) ، إله النيل ، وكانت منحوتة بالأسلوب الإغريقى ، كما عثر على تماثيل واقعية لأفراد من الشعب .

ومن الأعمال الفنية الرائعة التى تمثل فن النحت الهيلينستى فى الإسكندرية ، تمثال لرجل مكتمل العمر مضطجع يستند على تمثال أبى الهول ، ومن حوله ستة عشر طفلاً صغيراً (ش ٩) وترمز هذه الشخصية إلى نهر النيل وفروعه ومنابعه . وكان المثالون فى تلك الفترة يقبلون على عمل تماثيل ترمز للمدن والأنهر . واقتبس الرومان هذه الفكرة الرمزية عندما نحتوا تمثالاً على هيئة رجل رمزاً لنهر التيبر الإيطالى .

ولقد أنتجت مدرسة الإسكندرية تماثيل للآلهة المصرية من الطين المحروق ، وتظهر أحيانا هذه الآلهة بالشكل الإغريقى ، ويوضح ذلك تمثال يصور الإلهة إيزيس جالسة حاملة ابنها . كذلك ساهمت مدرسة الإسكندرية فى عمل تماثيل فخارية صغيرة تصور نساء (ش ١٠) ولقد عرفت هذه التماثيل التى أنتجت فى المراكز الهيلينية باسم «تناجرا» ومن الأعمال الواقعية تمثال من البرونز (شكل ١١)

(١) عمل أبناء المثال الإغريقى براكستيل فى بلاط البطالمة بالأسكندرية وأسسوا بها أسلوب تميز بالرقة .

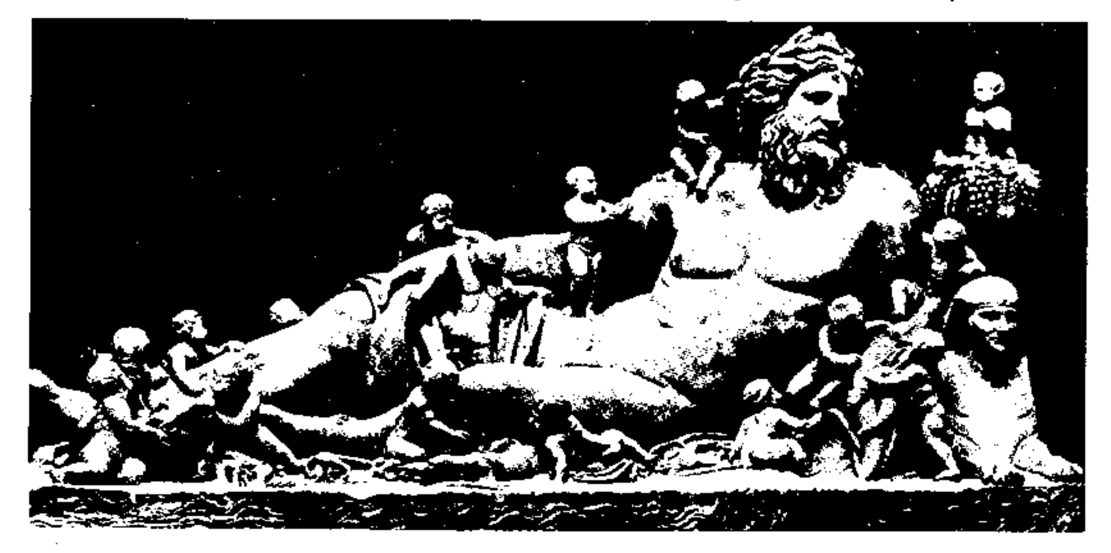




(شكل٧) رأس تمثال سيدة من الحجر ، العصر الهيلينستى ،
حالياً بالمتحف الإغريقى الرومانى بالإسكندرية

(شكل ٨) تمثال نصفى للإله سيرابيس على هيئة الإله الإغريقى زيوس المتحف اليونانى الرومانى الإسكندرية

(شكل ٩) تمثال النيل ، على هيئة رجل مكتمل العمر مضطجعاً ومستنداً إلى تمثال أبو الهول ، ومن حوله ستة عشر طفلاً يمثلون فروعه . ينسب إلى مدرسة الإسكندرية فى العصر الهيلينستى . متحف الفاتيكان .





(شكل ١٠) تمثال من الفخار لسيدة عرفت باسم التناجرا المتحف اليوناني الروماني .



(شكل ١١) تمثال صغير من البرونز لصبي نوبي . مدرسة الإسكندرية ، العصر الهيلينستي ، متحف اللوفر

النقش على الحجر :

توضح النقوش التى وجدت على شواهد القبور والمعابد المراحل التى مر بها فن النحت على الأحجار فى العصر البطلمى ، ومن الملاحظ فى هذه الأعمال أن أسلوب تنفيذ الموضوعات المصرية أو الإغريقية كان إما بالأسلوب الإغريقى أو المصرى .

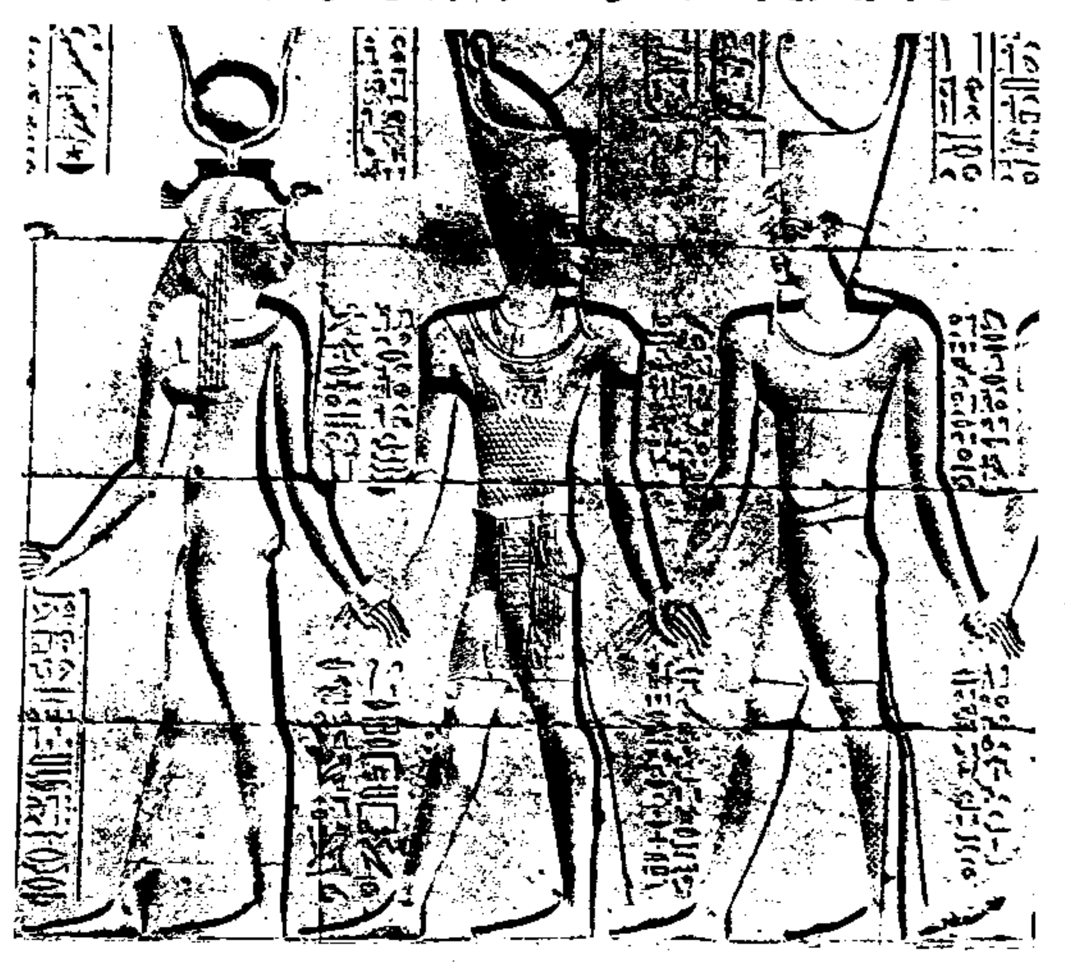
فنلاحظ مثلا أن الموضوعات المنقوشة على شواهد قبور الجالية الإغريقية ، منفذة إما بالأسلوب الإغريقيى (ش ١٢) ، وإما بالخطوط شديدة الغور التى سادت فى نقوش العصور المصرية المتأخرة .



(شكل ١٢) شاهد قبر من الحجر المتحف اليونانى الرومانى ، الإسكندرية

لم تختلف الموضوعات المنقوشة على جدران المعابد البطلمية فى الغالب عن الموضوعات الموجودة على جدران المعابد المصرية . ويتضح ذلك فى نقش يصور الملك بطليموس الثانى مرتدياً التاج المزدوج محاطاً بالآلهة (ش ١٣) . ونلاحظ أن نقوش العصر البطلمى تتميز بعمق واضح يذكرنا بنقوش الأسرة العشرين .

ويستمر هذا الأسلوب حتى نهاية العصر ويوضح ذلك نقش وجد على معبد دندرة يصور كليوباترة السابعة على هيئة الإلهة إيزيس (ش ١٤) .



(شكل١٣) نقوش غائرة على أحد جدران معبد إدفو تصور الملك بطليموس الثانى محاطاً بالآلهة



(شكل ١٤) نحت غائر يصور كليوباتره السابعة على هيئة الإلهة إيزيس . معبد دندره

وبالرغم من ضعف انتشار تأثير الفن الفارسى الأكمينى بين شعوب الأقطار التى حكمها الفرس قبل الغزو الإغريقى ، فإننا نلاحظ تأثيرات منه تظهر فى العصر البطلمى . ويتضح ذلك فى نقش على جدران الدرجات الصاعدة إلى سقف معبد أدفو (ش ١٥) حيث تذكرنا صورة الملك والكهنة يصعدون السلم فى الاحتفالات الدينية بالنقوش البارزة الموجودة على جدران برسيبوليس بإيران (ش ١٦) .

التصوير

شجع الحكام المقدونيين الفنانين الإغريق على ترك أثينا والالتحاق ببلادهم . ومن المصورين الذين التحقوا ببلاط بطليموس الأول . المصور « أنتفيلوس » .

ولقد عثر على تصاوير جدارية فى الإسكندرية فى مقبرة تيجران ويتضح من دراستها وجود الموضوعات المصرية والإغريقية فى مكان واحد . فيتوسط سقف المقبرة رسما يصور « ميدوزا » إحدى بطلات الأساطير الإغريقية موضوعة فى شكل



(شكل ١٥) نحت على جدار درجات معبد إدفو يصور المواكب الصاعدة فى الاحتفالات الدينية

(شكل ١٦) نقش بارز على جدار درجات قصر برسيبوليس ، العصر الأكميني ، إيران





(شكل ١٧) تصوير جداري وجد على سقف مقبرة بالإسكندرية يتوسطه رأس ميدوزا



(شكل ١٨) تصوير جداري وجد على جدران مقبرة بالإسكندرية يصور موضوعا مصريا الآلهة أوزيريس وإيزيس ونفتيس .



صورة ملونة لرجل على لوح من الخشب وجدت بمدينة الفيوم ، القرن الثانى ، العصر الرومانى فى مصر

في كنيسة القديس فيتال بمدينة افينا . تصور الإمبراطورة تيودورا مع
وصيفاتها . القرن السادس العصر البيزنطي

هندسى ، (ش ١٧) يحيط به تفريعات نباتية وأشكال حيوانية .

وفى الجزء الواقع أسفل السقف مباشرة وجدت لوحة تصور جثمان الإله « أوزوريس » موضوعا على سرير ، ويقف بجواره من الجهتين الإلهتين « إيزيس » و « نفتيس » (ش ١٨)

الفنون الصغيرة

اشتهرت الإسكندرية وبرجامون بكونهما مركزين هامين لصناعة المعادن بين المراكز الهيلينية . ولقد سجلت أعمال صناع المعادن على تصاوير جدارية فى مقبرة من العصر البطلمى — فى جبانة هرمو بوليس ، تونا الجبل — خاصة بكبير كهنة توت « بتوزيرس » (ش ١٩)

وتلاحظ فى تصميم هذه الأعمال التأثير الفارسى خاصة فى إناء الشراب وفى العمود الذى يعلوه تاج من زهر اللوتس يحمل حيوانات رابضة ، ولقد ظهرت تيجان مشابهة لذلك فى قصر برسيبوليس الفارسى .



(شكل ١٩) نقش على جدار مقبرة الكاهن بتوذيريس بتونا الجبل ، مصر العليا ، يصور صناع المعادن العصر البطلمى

وكانت هذه الأعمال الفضية والذهبية تصب على قوالب من الجص تنقش عليها الزخارف المطلوبة . . ويوضح ذلك قالب إناء من الجص عثر عليه فى الدلتا زخرف بنقش للإلهة إيزيس جالسة ومعها الطفل حورس بجوار أبو الهول (ش ٢٠)

كذلك انتشرت فى العصر الهيلينستى فكرة نقش صور الملوك على العملات الفضية والذهبية بالإضافة إلى أشكال الآلهة . واستعان الحكام بالمصورين الإغريق لعمل صور شخصية لهم نفذت على عملاتهم ويوضح ذلك عملة تصور الإسكندر المقدونى وعلى رأسه تاج ذو قرنين (ش ٢١) .

ولقد أقيمت دار سك العملة فى الإسكندرية فى العصر البطلمى ، ونلاحظ فى نقش صور هؤلاء الحكام الأسلوب الهيلينستى الواقعى الذى تظهر به خصلات الشعر متطايرة ويتضح ذلك فى عملة تصور بطليموس الأول (ش ٢٢) .

ولقد سكت ميدالية برونزية فى عصر البطالمة بمناسبة وفاة الإسكندر ولا بد أن المصور انتفيلوس ، عمل له صوراً شخصية نفذت على العملات الفضية .

وعرفت الميدالية التذكارية البرنزية فى مصر فى عصر البطالمة منذ عام ٢١١ ق . م عندما سكت واحدة بمناسبة وفاة الإسكندرية الرابع .



(شكل ٢٠) قالب إناء من الجص به نقش لموضوع مصرى . إيزيس وحورس . متحف برلين

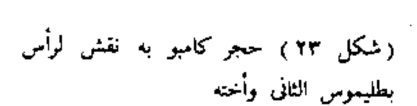


(شكل ٢١) عملة منقوشة بصورة الإسكندر مرتدياً تاجاً مصرياً ذا قرنين .



(شكل ٢٢) عملة منقوشة بصورة بطليموس الأول . « سوتر » مؤسس أسرة البطالمة بمتحف لاهاى .





(شكل ٢٣) حجر كامبو به نقش لرأس بطليموس الثانى وأخته

وتفوقت الإسكندرية وأنطاكية بين البلاد الهيلينستية بكونهما مركزين لنحت حجر نصف كريم يعرف باسم «كاميو»[١] ولقد تقدمت هذه الصناعة فى العصر الهيلينستى وبرع الفنانون فى نقش الموضوعات التى تتميز بالدقة المتناهية. ولقد وجدت نماذج منه نقش عليها صورة إسكندر ووالدته أوليمبيا، كما عثر على حجر به نقش بطليموس الثانى وأخته (ش ٢٣).

الرومان (٣١ ق . م – ٣٠٦ م)

لم تكن مصر مركزاً للحضارة الهيلينستية فى حكم الرومان مثلما كانت فى عصر البطالمة . ويختفى الطابع المصرى القديم تقريباً بعد سقوط دولة البطالمة ، ويسود طابع جديد إغريقى رومانى يعتبر امتداداً للفن الهيلينستى الذى ظهر فى البلاد التابعة لحكم خلفاء الإسكندر . وينتشر هذا الطابع الهيلينستى الرومانى بصفة خاصة فى الإسكندرية والفيوم لوجود جاليات إغريقية رومانية بهما .

العمارة :

أضاف بعض الأباطرة المصلحين أجزاء إلى المعابد البطلمية (ش ٢٤) كما شيد الإمبراطور هادريان مدينة بالقرب من أسيوط عرفت باسم أنطونيو ، حالياً « الشيخ عبادة » . ولقد أقامت الجالية اليهودية بالإسكندرية عموداً تذكارياً للملك دقلديانوس (ش ٢٥) استمد شكله من الأعمدة التذكارية الكورنثية .

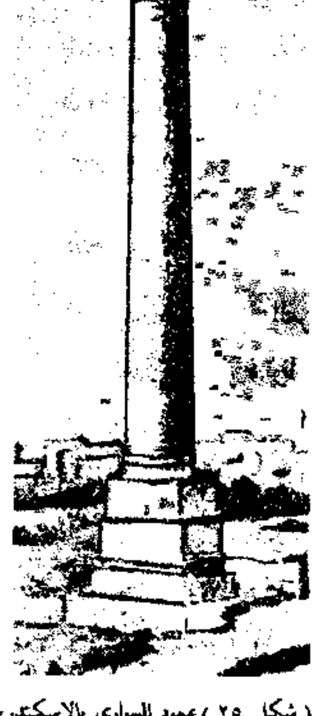
النحت :

نشط فن النحت مرة ثانية فى الإسكندرية فى القرن الأول ق . م . فى العصر الرومانى . وكانت التماثيل الحجرية التى عثر عليها من تلك الفترة ذات طابع رومانى

(١) لم أتوصل إلى التسمية العربية فى القواميس التى بحثت فيها .



(شكل ٢٤) جزء من معبد فيلة ، يرجع إلى العصر الرومانى فى فترة حكم تراجان ، القرن بعد الميلاد .



(شكل ٢٥) عمود السوارى بالإسكندرية .
العصر الرومانى .



(شكل ٢٦) تمثال الحاكم ليسينس ٣٠٨ – ٣٢٤
العصر الرومانى المتحف المصرى بالقاهرة .

بحت ليس بها أى جديد . ويتضح ذلك من تمثال لشخص يدعى ليسينوس بالمتحف المصرى بالقاهرة (ش ٢٦) وتمثال لشخصية رومانية بالمتحف الإغريقى الرومانى بالإسكندرية يرجح أنها تمثل الإمبراطور دقلديانوس (ش ٢٧) ونلاحظ أن أسلوب نحت مدينة الإسكندرية الهيلينستى قد أصبح متأثراً بالطراز الرومانى .

التصوير :

بدأ ظهور تأثير الفن الإغريقى الرومانى (الهيلينستى) فى بعض التصاوير الجدارية التى تغطى مقابر «تونا الجبل» . فنلاحظ أن الفنان المصرى قد استخدم الأساطير الإغريقية فى تصاوير الإفريسكو الملونة . ويتضح ذلك فى تصوير جدارى وجد فى مقبرة ، يوضح ثلاث مراحل من أسطورة أوديب . فترى الملك يجتاز بوابة مدينة طيبة ببلاد اليونان ويقابل أبا الهول ، وتصور المدينة على هيئة آدمى ، وفى النهاية يصور أوديب وهو يقتل والده (ش ٢٨). ونجد فى هذه الصورة محاولة من الفنان فى إظهار الضوء والظل كما اهتم بتسجيل الخلفيات المعمارية .

ومن المرجح ازدهار مدرسة التصوير الجدارى فى الإسكندرية فى العصر الرومانى ، وانتقلت موضوعاتها إلى الغرب . ويؤيد ذلك تصاوير جدارية عثر عليها فى مدينة بومبى (ش ٢٩) تصور موضوعات نيلية مقتبسة من مدرسة الإسكندرية .

إلا أن هذا العصر يتميز بظهور صور شخصية ملونة لنساء ورجال وأولاد توضع على وجه تابوت المومياء (ش ٣٠) بدلا من الوجوه المحفورة التى كانت توضع على الجزء الأعلى من توابيت الموتى . وكانت هذه الصورة الملونة ترسم على قماش مغطى بطبقة من الجبس أو على اللوح الخشبى مباشرة .

ولما كان الغرض من رسم هذه الصور [لوحة ملونة ١] أن تحافظ على شبه المتوفى حتى تساعد الروح على البقاء ، لذلك يلاحظ أن هذه المجموعة التى تصور شباباً ورجالاً ونساء (ش ٣١) تتميز بدقة فى فن التصوير الشخصى لم يظهر مثلها فى البلاد الواقعة تحت الحكم الرومانى ، حيث نلاحظ أن الفنان قد سجل الظلال التى تظهر فى الوجه حتى يبدو مجسما ، كما اهتم بتوضيح درجات اللون فى أجزاء الوجه . وتنسب هذه



(شكل ٢٧) تمثال حاكم رومانى يرجح أنه الإمبراطور دقلديانوس المتحف اليونانى الرومانى الإسكندرية .



(شكل ٢٨) تصوير جدارى منقول من مقبرة بتونا الجبل إلى المتحف المصرى بالقاهرة . وتظهر به صور ملونة من قصة أوديب الملك .



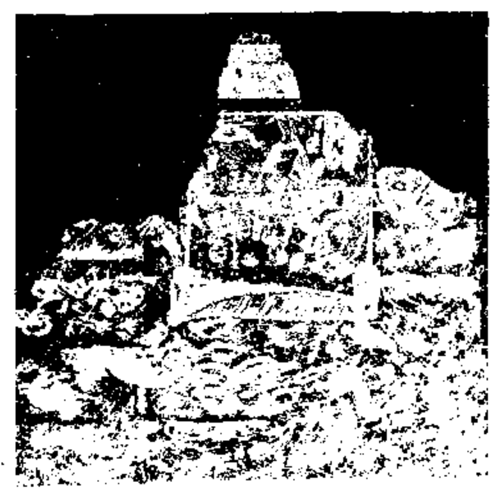
(شكل ٢٩) تصوير جدارى بمناظر نيلية متأثرة بأسلوب مدرسة الإسكندرية . عثر عليه فى مدينة بومبى ونقل إلى المتحف الأهلى بنابولى .



(شكل ٣٠) وجه مرسوم على كفن مومياء عثر عليه فى الفيوم ، القرن الثانى الميلادى العصر الرومانى . متحف برلين .



(شكل ٣١) وجه سيدة مرسوم على تابوت . عثر عليه فى الفيوم القرن الثانى الميلادى العصر الرومانى . متحف تاريخ الفنون بمدينة فيينا .



(شكل ٣٢) فسيفساء عثر عليها بالقرب من الإسكندرية ، تصور موضوعات نيلية . المتحف الرومانى الإسكندرية

(شكل ٣٣) فسيفساء عثر عليها فى منزل فى بومبى - تصور مناظر نيلية منقولة عن أصول اشتهرت بها مدرسة الإسكندرية .

(شكل ٣٤) إناء من الزجاج عثر عليه فى كوم أوشيم ، العصر الرومانى . مجموعة خاصة



(شكل ٣٥) نقش على حجر « الكاميو » يصور الإمبراطور أغسطس والإلهة روما جالسين . القرن الأول بعد الميلاد ، العصر الرومانى . وتنسب إلى الإسكندرية ، متحف الفنون ، فيينا .

الصور إلى الجالية الإغريقية التى وجدت فى الفيوم فى عهد الإمبراطور هادريان .

ومن الفنون التى انتشرت فى مصر فى العصر الرومانى فن زخرفة الأرضيات بالفسيفساء . ويدل على ذلك الفسيفساء التى عثر عليها فى تل تماى بالقرب من الإسكندرية (ش ٣٢) . وتشمل هذه الزخارف موضوعات نيلية نقلها الرومان إلى بلادهم (ش ٣٣) .

ويضعف التأثير الهيلينستى فى فترة الحكم الرومانى ويؤيد ذلك الفسيفساء التى عثر عليها فى جهة شيخ زويده شرقى الإسكندرية . ويرجع تاريخ هذه الزخارف إلى الفترة الواقعة بين حكم أنطونيوس تيوس – ١٢٨ م – وقسطنطين الثانى – ٣٦١ م – وربما نقلت موضوعات زخارف هذه الفسيفساء عن تصاوير جدارية . ويؤيد ذلك اللوحة الفسيفسائية التى عثر عليها فى بومبى والموجودة حاليا بمتحف نابولى والتى تصور لقاء الاسكندر بالملك دارا (ش ١) حيث ذكر أنها نقلت عن تصوير جدارى قام به المصور فيلوكيفس عام ٣٠٠ ق . م .

وكما نعلم كانت صناعة الزجاج من الفنون المشهورة فى مصر منذ قديم الزمان واستمر ازدهار تلك الصناعة فى العصرين الإغريقى والرومانى . ويتضح ذلك من المجموعة الجميلة التى عثر عليها فى منطقة كوم أوشيم (كرانس القديمة) غرب الفيوم . ويؤيد هذه البراعة إناء من الزجاج بالمتحف الرومانى به زخارف(ش ٣٤) متعددة الألوان .

كما زاد إتقان فنان الإسكندرية لفن حفر الأحجار الكريمة وصارت الإسكندرية أهم مراكز صناعة الكاميو. ويتضح ذلك فى حجر منقوش بموضوع قصصى (ش ٣٥) .

الفصل الثانى

سوريا

السلوقيون (٣١٢ - ١٣٩ ق . م) فى العراق . (٣١٢ - ٦٤ ق . م) فى سوريا
الرومان (٦٥ ق . م - ٣٠٠ م)

وقعت أملاك الإسكندر الآسيوية بعد موته من بحر إيجا حتى السند فى يد نيقاطور (سلوقس) قائد المنطقة الشرقية فى عهد الإسكندر ، وبذلك أصبح سلوقس الأول (٣١٢ - ٢٨١ ق . م) ملكاً على آسيا . وأسس الدولة السلوقية وشيد لها عاصمة جديدة على الضفة الغربية من نهر دجلة أسماها سلوقية وبذلك حلت محل بابل عاصمة بلاد النهرين . كما شيد مدناً جديدة على غرار المدن الإغريقية أشهرها أنطاكية على نهر العاصى أسماها باسم والده أنطيوكس . تعاقب على حكم الدولة عدد من الملوك كان أكثرهم يحمل اسم سلوقس أو أنطيوكس . أشهرهم أنطيوكس الثالث (٢٢٣ - ١٨٧ ق. م) إلا أن سلوقية فقدت مركزها بعد ضعف الدولة وصارت أنطاكية مركزاً لحكم الأسرة بعد أن اقتصر نفوذها على سوريا .

كانت كل من مصر ومقدونيا دولة متضامنة متجانسة ومن السهل نسبيًا الدفاع عنها ، على حين كانت الإمبراطورية الآسيوية تنقصها الوحدة ، لذلك لم يتمكن ملوكها من الاحتفاظ بإمبراطوريتهم . فسرعان ما استعادت البنجاب استقلالها ، كما تمكن الفرثيون من الاستقلال بحكم إيران فى عام ٢٥٠ ق . م وفرضوا سلطانهم على البلاد الواقعة شرق نهر دجلة . وتمكنوا من الاستيلاء على بلاد النهرين عام ١٣٩ ق . م فى عهد أنطيوكس السابع ، الذى اقتصر حكمه على سوريا فقط . وبذلك وجد خلفاء سلوقس أنفسهم محصورين فى منتصف القرن الثانى الميلادى فى الأراضى الواقعة بين الفرات شرقاً وبين دولة البطالمة ، أى بين فارثيا ونفوذ روما .

---

(١) تعرف أطلالها حاليًا بتل عمر .

تمكنت الجيوش الرومانية التى تطمع فى بلاد الشرق الأوسط من فتح سوريا عام ٩٥ فى عهد الملك أنطوكس التاسع ، وبـقى الجزء الشمالى لفترة تحت حكم الأسرة إلى أن زال تماماً بعد استيلاء الرومان عليه عام ٦٥ ق . م .

كان الملوك السلوقيون أكثر الأسرات المقدونية الإغريقية حماساً للحضارة الهيلينية وعملوا على نشرها فى ممتلكاتهم . واقتبس سكان هذه الأقطار مع من هاجر إليها من البلاد الإغريقية لسكنى المدن الجديدة مظاهر الحضارة الهيلينة . وظلت سلوقية مدينة إغريقية حتى بعد أن استولى عليها الفرثيون .

لاحظنا أن تأثير الفن الهيلينستى كان بسيطاً فى مصر لقلة حماس البطالمة لنشر رسالة الهيلينية ، غير أن حكام سوريا الذين كانوا يحبون الهيلينية حباً جماً ساعدوا على انتشار الهيلينية وفنونها ، وإنه للأسف لم يعثر على آثار تذكر فى سوريا من فترة حكمهم . وكانت أكثر الآثار الهيلينية التى عثر عليها المنقبون فى المدن السورية تعود إلى الفترة الرومانية . وتظهر الآثار الهيلينية ايضاً فى المدن الصحراوية الواقعة على حدود الدولة السورية .

العمارة :

كانت مدينة بعلبك مدينة مهمة فى العصر الرومانى لموقعها ، وعرفت بمدينة الشمس فى عهد السلوقيين ، وكانت الشهرة العالمية للمدينة مصدرها المعبد الذى أنشئ قبل العصر السلوقى لعبادة الإله السورى المحلى بعل . ويقال إنه كان يضم تمثالاً ذهبياً للآله . ولقد تناوب الرومان توسيع المعبد من القرن الثانى الميلادى حتى القرن الثالث . وتفوق آثاره أى آثار عثر عليها فى سوريا من العهد الرومانى (ش ٣٦) . وقد خصص بالمعبد مكان لعبادة الإلهين جوبيتر وباكوس . وتتضح عمارة هذا المعبد الجميلة فى مجموعة الأعمدة الحجرية التى تعلوها تيجان كورنثية . ويظهر الأسلوب الهيلسنتى فى أسلوب نحت أوراق النبات بالشكل الطبيعى .

غير أن هناك أسلوباً شرقياً يظهر فى طريقة نحت زخارف أوراق الشجر الموجودة فى إطارات الفتحات ، حيث نلاحظ أن النحت عميق ، وهذا طابع شرقى اشتهر به

العمال السوريون . وانتقل هذا الأسلوب إلى شمال أفريقيا فى عهد الإمبراطور سويروس الذى أحضر فنانين من سوريا لنقش جدران البازيليكا التى شيدها فى مدينة ليده بليبيا . (ش ٥٠) ولقد انتقل هذا الأسلوب بعد ذلك إلى إيطاليا وظهر فى عهد النهضة فى روما . ولو فرض أن مدينة الشمس مدينة رومانية فإننا نلاحظ أن الشرق قد ترك بصماته على هذا المعبد الذى يميزه عن أى مبنى رومانى فى أوربا .

النحت :

صاحب التغييرات الثقافية التى ظهرت فى العصر الهيلينى تغييرات أساسية فى فن النحت . واتجه الفنان إلى الاهتمام بالواقع فى الحركة والتعبير وفى نوع الموضوع الذى يختـــاره . وانحصر اهتمام المثالين فى تلك الفترة فى عمل تماثيل شخصية للملوك أو الآلهة أو الشخصيات الشعبية . وتظهر مقدرة الفنان فى التعبير عن شخصية الحاكم فى رأس تمثال الملك أنطيوكس الثالث (ش ٣٧) الذى انتعشت فى عهده الدولة السلوقية .

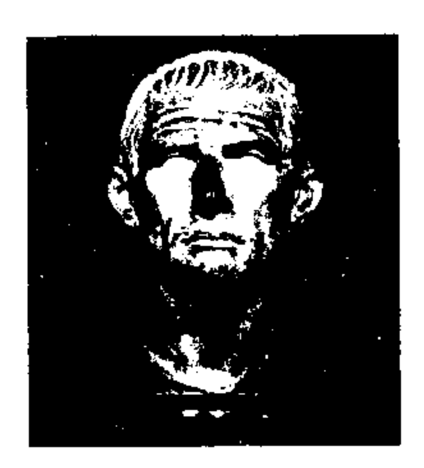
تكونت أيضاً فى المدن الواقعة على الحدود السورية ذات الأصل العربى مراكز مهمة للفن الهيلينستى فى سوريا . ولقد انتقل إليها هذا الفن بعد ازدهاره فى بعض الدول الرومانية . وهذه المدن هى تدمر فى الشمال ، ودورا أوربا على نهر الفرات ، ومدينة البتراء جنوب الأردن وقد حكمت هذه المدن عائلات عربية حافظت على علاقاتها الودية بجيرانها الأقوياء . كذلك انتشرت الفنون الهيلينستية فى بعض المراكز العربية الواقعة تحت حكم السلوقيين ، مثل اليمن وجزيرتى فيلكه (الكويت) والبحرين وشمال أفريقيا فى فترة خضوعها للرومان .

مدينة تدمر :

عرفت هذه المدينة فى عهد الإغريق باسم « بالميرا » [1] . وترجع نشأتها فى الصحراء السورية إلى عهد الفرثيين ، وكان يسكنها فى أول نشأتها قبائل عربية . وساعد

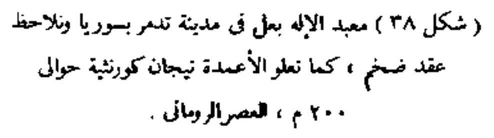
(١) هذه تسمية أغريقية معناها مدينة النخيل .

(شكل ٣٦) معبد بمدينة بعلبك (سوريا) العصر الرومانى .



(شكل ٣٧) رأس تمثال الملك أنطيوكس الثالث عثر عليه فى سلوقية ، القرن الثالث ق.م. حالياً بمتحف اللوفر .





(شكل ٣٨) معبد الإله بعل فى مدينة تدمر بسوريا ونلاحظ عقد ضخم ، كما تعلو الأعمدة تيجان كورنثية حوالى ٢٠٠ م ، العصر الرومانى .

موقعها المنعزل فى الصحراء على أن تكون مركزاً هاماً من مراكز القوافل التجارية فى عصر السلوقيين . وفى عصر الإمبراطور أغسطس كانت منطقة فاصلة ووسيلة اتصال بين فرثيا وروما . وكان التدمريون يقومون بالقسط الأكبر من تجارة البحر الأبيض المتوسط مع بلاد فارس والهند والصين ، مما نتج عنه أن أصبحت تدمر أكثر مدن سوريا والشرق الأوسط ثروة وفخامة .

حافظ أمراء تدمر على استقلالهم وحيادهم لمدة طويلة ، وكانوا على صلات ودية مع الإمبراطورية الرومانية فى فترة حروبها مع الفرثيين ودولة الساسان الذين خلفوهم فى حكم إيران . إلا أن هذا الاستقلال لم يكن من السهل المحافظة عليه حينما اشتد نفوذ الإمبراطورية الرومانية فأصبحت تدمر تابعة لروما لفترة تمكن بعدها « اذينة » ملك تدمر غير المتوج من الاستقلال بها . وبعد أن هزم شاهبور الساسانى لقبته الإمبراطورية الرومانية بلقب « ملك الملوك » حاكم الشرق . وامتد حكمه من أرمينيا إلى شمال مصر .

وورثت هذا اللقب زوجته زنوبيا أو « الزباء العربية » . واتسعت الدولة فى عهدها وشملت سوريا وجزءاً من آسيا الصغرى وشمال الجزيرة العربية والإسكندرية . إلا أن جيوش الإمبراطور أورليان تمكنت من هزيمتها فى أنطاكية عام ٢٧١ م ، وماتت فى الأسر الرومانى . ولقد نهبت تدمر ودمرت فى هذه الحروب ولم تقم لها قائمة بعد ذلك .

وتعتبر آثار تدمر من أحسن الآثار السورية التى تأثرت بالنمط الهيليستى . وتدل هذه الآثار على الرخاء الذى كانت تتمتع به هذه المدينة التجارية .

العمارة :

كانت المعابد التى شيدت فى تدمر مخصصة للآلهة التدمرية المحلية ، وكان تصميم المعبد الكبير الذى شيد لعبادة الإله بعل فى القرن الثانى الميلادى مزيجاً من تصميم المعابد الإغريقية ومعابد بلاد النهرين . وكان التدمريون الذين لم يكن لهم تقاليد فنية قديمة خاصة بهم يميلون إلى العمارة الكلاسيكية ، واستخدموا فى ذلك مهندسين إغريقيين ورومانيين . إلا أننا نلاحظ أنه بالرغم من أن طراز الأعمدة والعقود إغريقى رومانى (ش ٣٨) فإنه يوجد طابع شرقى إلى جانب الأسلوب الإمبراطورى . حيث تظهر بالأعمدة

الموجودة بالمعبد دعائم حجرية بارزة لوضع تماثيل الأفراد الذين قاموا بأعمال جديرة بالتقدير وهذا الأسلوب تدمرى شرقى .

النحت :

تتميز مدينة تدمر بتماثيل تبرز من ألواح جنائزية وجدت فى مدافنهم . ولقد ساعدت هذه الألواح الفريدة على معرفتنا بشكل رجال ونساء الطبقة الحاكمة فى المدينة . ويتضح من لوحة حجرية كانت تستعمل كشاهد لقبر سيدة (ش ٣٩)،تأثر الفنان بالأسلوب الشرقى فى تسجيله لثنيات النسيج وتوضيحه شكل المصاغ الذى يدل على الترف . وفى بعض الأحيان كان شكل المتوفى ينقش مع عائلته فى لوحة واحدة ،كما كان الاسم يكتب باللغتين السورية والإغريقية . ولقد أثر أسلوب تدمر بعد ذلك فى الفن البيزنطى .

وقد عثر فى مدينة حمص الواقعة بالغرب من تدمر على خوذة معدنية على هيئة وجه آدمى (ش ٤٠) وهذه الخوذة مصنوعة من الحديد والفضة . واستعمال معادن مختلفة فى عمل فنى واحد هو أسلوب اشتهر به الحيثيون فى الأناضول قبل ذلك . ويمكن أن تعتبر هذه الخوذة مثال لفترة مبكرة من فن تدمر حيث إن المسافة بين تدمر وحمص تبلغ حوالى مائة وخمسين كيلومتراً .

دورا أوربا :

أنشأ مدينة دورا أحد قواد الإسكندر المقدونى فى الصحراء السورية عند منتصف نهر الفرات شمال مدينة مارى . ولقد نشأت هذه المستعمرة الهيلينسية فى حوالى عام ٣٠٠ ق . م . وكانت مركزاً للقوافل التى تخترق آسيا الصغرى فى طريقها إلى إيران والهند فى عهد السلوقيين ، ثم وقعت فى أيدى الفرس فى عهد الأسرة الفرثية . واستخدمها الرومان كحصن ضد الفرثيين على حدود الإمبراطورية من جهة نهر الفرات بعد عصر الإمبراطور تراجان ، واحتلها الساسانيون فى عام ٢٦٠ م ودمرت بعد عام ٢٥٠ م .
احتوت هذه المدينة على معابد للآلهة الإغريقية والرومانية وآلهة بلاد النهرين وإيران

(شكل ٣٩) لوحة حجرية كانت تستعمل شاهد قبر فى مدينة تدمر . وبالرغم من الأسلوب الهيلينستى الواضح ، إلا أن المبالغة فى تسجيل تفاصيل الزى يبعد اللوحة عن الفن الإغريقى



(شكل ٤٠) خوذة معدنية مشكلة على هيئة وجه آدمى من آثار الحضارة التدمرية ، حالياً متحف دمشق



(شكل ٤١) تصوير جدارى وجد على معبد فى مدينة دورا أوروبا : رهبان يقومون بطقوس دينية

وسوريا ، بالإضافة إلى آلهة قوافل تدمر والآلهة العربية . كذلك عثر فى هذه المدينة على معبد يهودى ومنزل كان يقيم به جالية مسيحية تقيم طقوسها الدينية فيه . ويتوسط هذا المنزل فناء مكشوف وتغطى جدران هذه المبانى تصاوير جدارية ملونة .

التصاوير الجدارية :

وترجع أهمية مدينة دورا إلى التصاوير الجدارية التى تغطى جدران المبانى الدينية ، لدرجة أن أطلق عليها بومبى[1] الشرق . وتنسب هذه التصاوير إلى العهود المختلفة التى مرت بها المدينة ، ويغلب على فنها الهيليستنى كثير من الأساليب الشرقية .

ومن أهم الصور التى وجدت فى معبد الآلهة التدمرية صورة ترجع إلى حوالى ٨٥ م تصور كهنة يمارسون الطقوس الدينية (ش ٤١) ونلاحظ فى رسم هؤلاء الأشخاص أنهم واقفون فى وضع المواجهة وهذا تأثير من الفن الفرثى الإيرانى . ولقد وقعت هذه المدينة فى قبضة الفرثيين فى القرن الأول الميلادى .

وتختلف موضوعات التصاوير الجدارية الموجودة على جدران المعبد اليهودى عن الموضوعات السابقة حيث غطيت الجدران بموضوعات من كتاب « العهد القديم » ويرجع تاريخها إلى حوالى ٢٤٥ م . ونلاحظ فى إحدى هذه الصور قصة النبى موسى عندما وضع فى سلة فى النهر وهو رضيع (ش ٤٢) ورأته أبنة فرعون فأمرت خادمها باحضار السلة . وتظهر الأميرة مرة أخرى تستعطف فرعون مصر لعدم قتل الطفل وإعطائه إياها . وهذا الأسلوب القصصى عن طريق التكرار مستمد من الشرق .

وإذا كنا قد لاحظنا أن تصاوير الآلهة التدمرية متأثرة بالشرق ، نجد أن صور المعبد اليهودى بها عدة أنماط . فالطابع الهيلنستى يظهر بصفة خاصة فى الصورة المليئة بحركة الأشخاص وفى الخلفية المعمارية . كما يتضح التأثير الإغريقى فى رسم بعض الأشخاص ومركز ثقلهم على قدم واحدة . ويظهر التأثير الشرقى الفرثى فى رسم الأشخاص بوضع المواجهة وفى المبالغة فى إظهار ثنيات الزى السورى الرومانى .

---

(١) مدينة بومبى تقع بالقرب من نابولى بإيطاليا وتشتهر بالتقارير الجدارية .

مدينة البتراء :

نشأت هذه المدينة قرب العقبة فى الصحراء السورية الواقعة فى شرق الأردن وعرف سكانها العرب فى العصر الهيليستى باسم الأنباط . وكانت مركزاً هاماً من مراكز القوافل التجارية بين الجزيرة العربية والشمال . وعظم شأن البتراء النبطية فى أواخر القرن الرابع قبل الميلاد ، حيث نجحوا فى صد هجوم أحد خلفاء الإسكندر فى عام ٣١٢ ق . م واشتهر من أمرائهم فى القرن الثانى قبل الميلاد الحارث وعبادة . وأصبحوا قوة هامة فى القرن الأول الميلادى بعدما انتزعوا جزءاً من سوريا من أيدى السلوقيين فى حوالى عام ٨٥ ق . م . وأصبحت البتراء ولاية رومانية بعد أن استولى عليها الإمبراطور تراجان عام ١٠٩ م .

العمارة :

أظهر الأنباط تفوقاً كبيراً فى فن العمارة وكانت عمائرهم تشتمل على المعابد والقبور. وكانت المعابد عبارة عن مساحات مستطيلة مسورة يضعون فيها أصنامهم الحجرية . إلا أنهم ابتكروا نموذجاً فريداً فى عمارة قبور ملوكهم التى حفروها فى الصخور (ش ٤٣) حيث يظهر بالواجهة نحت بارز به أعمدة وفتحات هيلينستية الطراز يجعلها تبدو كأنها عمارة مبنية . وتعرف هذه المقبرة باسم « الخزنة » . وربما أتى ملكهم « الحارث » بالصناع السوريين إلى العاصمة فأدخلوا معهم هذا الأسلوب الإغريقى الرومانى .

وجدت مقابر مشابهة لهذه المقابر فى مدينة «صالح» الواقعة فى الجهة الشمالية من طريق القوافل . وتذكرنا هذه القبور المحفورة ذات الواجهة المعمارية بقبور ملوك الإكمنيين الفرس . ولقد اقتبست جرش وعمان من العمارة الرومانية إلا أن آثار البتراء المعمارية تفوق هذه الآثار .

أما فن النحت فقد عثر منه على بقايا تماثيل كاملة بالقرب من البتراء إلا أن طرازها لا يتميز بأى طابع خاص .



(شكل ٤٢) صورة جدارية وجدت فى معبد يهودى بمدينة دورا أوروبا تصور
عدة مناظر من قصة فرعون مصر وموسى منذ كان طفلا



(شكل ٤٣) قبر أحد الملوك الأنباط منحوت فى الصخر (مملكة البتراء) .

الفصل الثالث

الجزر العربية

١ – شبه الجزيرة العربية

نشأ فى جنوب الجزيرة العربية قبل قيام مدن القوافل التجارية الإغريقية مدن أقام فيها العرب الذين كانوا يشتغلون بالتجارة وتصدير الحاصلات والعطارات إلى الأسواق الشمالية فى مصر وسوريا . وتعرف هذه المنطقة حاليًّا باليمن . ولقد تمتعت هذه المنطقة بحضارة قديمة منذ عام ١٠٠٠ ق . م . وكانت قبائل سبأ[١] ساكنوها يشيدون المدن والمصارف ، ويشهد على ذلك سد مأرب العظيم الذى يرجع إلى الألف الأول قبل الميلاد . ولقد تسبب الرخاء الذى تمتعت به اليمن عن طريق التجارة فى جعلها مطمعاً لجيرانها الأقوياء ، فحارب الأشوريون والبابليون على التوالى قبائل سبأ فى القرنين الثامن والسادس قبل الميلاد .

وتدل الحفريات التى أجريت فى المدن اليمنية على أن أهم حقبة حضارية لقبائل سبأ تقع فى الفترة ما بين عام ٣٥٠ إلى عام ٥٠ ق . م . وهى الفترة التى تلت غزو الإسكندر المقدونى لبلاد الشرق الأوسط وانتشرت الهيلينستية فيها[٢] . وكانت السفن المصرية البطلمية ترابط فى البحر الأحمر فوصلت الهيلينستية إلى اليمن عن طريق الإسكندرية .

لم يكن التأثير الهيلينستى قويًّا فى عمارة جنوب الجزيرة العربية فى عصر خلفاء الإسكندر ، ومن هذه الفترة يوجد عمود ذو طراز إغريقى فى مسجد فى مدينة صنعاء نقل من معبد قديم كان قائماً فى المدينة فى تلك الفترة . إلا أن التأثير الهيلينستى ينتشر بصورة

---

(١) قبائل سبأ تنسب إلى سبا بن قحطان حفيد إبراهيم .

(٢) جمع تيوفر استوس الإغريقى فى القرن الثالث تقارير العلماء الذين أرسلهم الإسكندر إلى هذه البلاد لدراسة الأعشاب والعطور العربية .

أوضح فى العصر الرومانى . وذلك لأن الرومان تغلغلوا فى قلب الجزيرة العربية أكثر من الإغريق . فنى عام ٢٤ ق . م غزا آليوس كالوس جنوب شبه الجزيرة العربية . وفى عام ١٠٦ احتل تراجان مدينة البتراء العربية وأقام حامية رومانية حولها ، كما وجدت مراكز رومانية فى بصره وجيرش وتدمر .

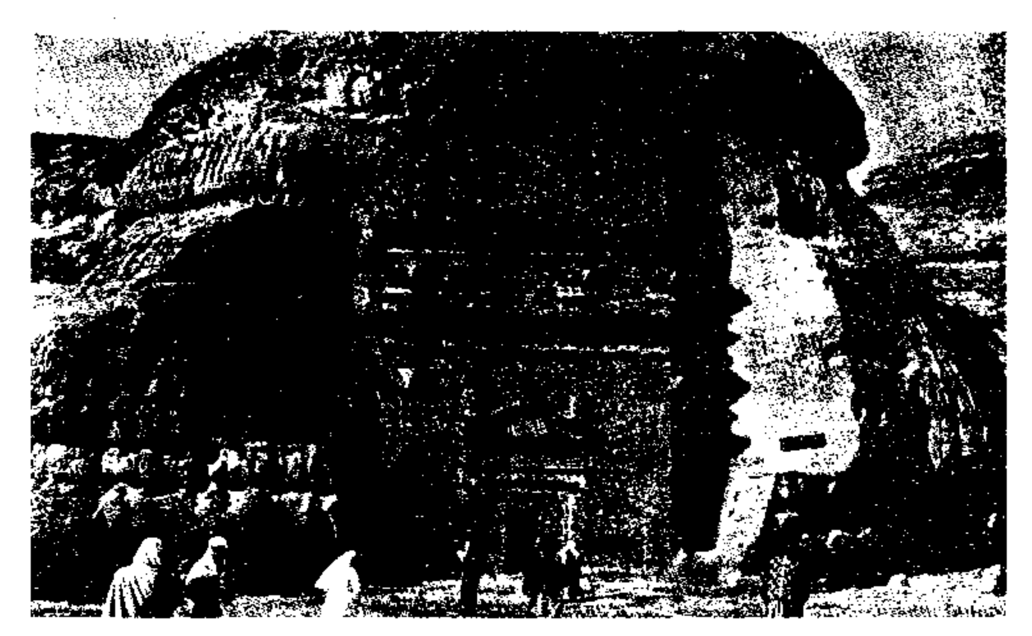
يظهر التأثير الهيلينستى الرومانى فى أجزاء من أعمدة عثر عليها فى شبه الجزيرة العربية محفوظة حاليًا بمتحف اسطنبول . وتذكرنا زخارف تفريعات العنب والحيوانات المنقوشة على الأعمدة بالتأثير الرومانى الذى وجد فى معبد مدينة بعلبك فى القرن الثانى الميلادى أو بعد ذلك .

إلا أن التأثير الرومانى الذى وصل إلى شبه الجزيره كان هذه المرة عن طريق سوريا . فيتضح تأثير مقابر الأنباط على مقابر مدينة صالح (ش ٤٤) .

ونلاحظ تأثير الفن الإغريقى الرومانى بصورة أوضح فى فن النحت حيث تبدو الآلهة اليمنية فى ثياب ذات طراز إغريقى رومانى . فنجد مثلا تمثال الإله اللات مرتدياً ثياباً من هذا الطراز ، كما يظهر منات إله مكة المفضل على هيئة إله شمسى هيلنستى .

ينعكس الأسلوب الهيلستنى على شواهد القبور أيضاً ، ويتضح ذلك فى شاهد قبر تبرز منه نحت لسيدة تدعى «عبان» يرجع إلى القرن الثانى الميلادى (ش ٤٥) ونلاحظ فى هذا النحت المسحة الهيلنستية التى وجدت فى النحت الجنائزى التدمرى . ولقد صادف الأسلوب الهيلينستى الذى يتميز بالحركة نجاحاً عند الفنان العربى الذى لم يكن يعرفه قبل ذلك ، فأقبل على تقليده بكثرة . ويظهر ذلك فى نقش بارز على حجر من البازلت حاليًا فى متحف أسطنبول ، ويرجع نسبته إلى القرن الأول ق . م ، يصور رجلاً ممتطياً جواداً فى وضع متحرك .

اشتهرت قبائل سبأ بالصناعات المعدنية وكانت الألواح المعدنية تستعمل فى تغطية الأبواب الخشبية . ويظهر النمط الهيلنستى فى كثير من الأشغال المعدنية ، ويتضح ذلك فى زوج من التماثيل البرونزية عثر عليها فى تمنا ، حيث يصور كل منها كيوبيد ممتطياً أسداً . ولو أن الكتابة المنقوشة عليهما تدل على أنهما من صناعة محلية فإن الأصول التى نقلت منها كانت نماذج من الإسكندرية . ويتضح فى رأس من البرونز بالمتحف



(شكل ٤٤) مدائن صالح نحت فى الحجر



(شكل ٤٥) شاهد قبر تحت بارز لسيدة عثر عليه فى جنوب الجزيرة العربية . القرن الثانى الميلادى .



(شكل ٤٦) رأس من البرونز لسيدة ، من صنع قبائل سبأ فى اليمن . المتحف البريطانى .

البريطانى – وترجع إلى القرن الثانى الميلادى – (ش ٤٦) أن الأسلوب مستمد من أصول كلاسيكية مع بقاء طابع شرقى محلى يظهر فى الوجه .

وفى ختامنا لدراسة آثار الجنوب فى الجزيرة العربية فى الفترة الهيلنستية يجب ألا نغفل الإشارة إلى النقوش الكتابية التى استخدمتها قبائل سبأ والحموريون فى زخرفة أعمالهم الفنية . ولقد انتقل هذا الأسلوب من العصور الوثنية العربية إلى الفنون الإسلامية .

ب – الكويت والبحرين

ذكر المؤرخ الإغريقى « أريان » الذى دون التاريخ الإغريقى عام ١٧٠ م ، أن الإسكندر الأكبر أخضع لسلطانه جزيرتين فى الخليج العربى على مقربة من مصب الفرات وأمر بإنشاء بعض المدن الساحلية والقلاع بهما لسكنى جنوده . كما ذكر أن الجزيرة الصغرى كان بها معبد للآله أرتميس ، وأن الإسكندر أطلق على الجزيرة الصغرى اسم إيكاروس ، وعلى الكبرى تيلوس .

ويرجح العلماء من الآثار التى عثر عليها فى الجزيرتين ، أن إيكاروس الصغيرة هى جزيرة فيلكة الكويتية ، وأن البحرين هى جزيرة تيلوس . ولقد دلت عمليات التنقيب التى قامت بها البعثة الدانمركية فى الجزيرتين على أنهما كانتا مركزين ثقافيين إداريين فى العصر السلوقى الهيلينى[١] ، كما ساعد موقعهما الجغرافى على كونهما من أهم مراكز التجارة بين الشرق والغرب .

وفى القرن الرابع الميلادى وقعت البحرين التى كانت تعرف باسم « أوَال » فى تلك الفترة تحت سيطرة شاهور الساسانى الذى استولى على جزء كبير من الساحل العربى .

وتدل الآثار التى عثر عليها فى جزيرة فيلكه على أن الجزيرة كانت واقعة تحت نفوذ الدولة السلوقية فى العصر الهيلينستى ، حيث عثر بها على قطعة من الحجر المنقوش عليه بالأحرف الإغريقية رسالة موجهة من ملك لم يذكر اسمه إلى أهل إيكاروس . وقد استنتج من أسلوب نقش الحروف أن الملك غالباً هو سلوقس الثانى .

---

(١) James Belgvave : Bahrain - p. 66 - 67.

ويؤيد هذا الزعم مجموعة من العملات الفضية والنحاسية عثر عليها فى الجزيرة حيث وجد على إحداها نقش باسم الإسكندر فى عهد سلوقس الأول حوالى ٣١٠ – ٣٠٠ ق . م . كما وجدت قطعتان نحاسيتان من عهد أنطيوكس الثالث الذى حكم الدولة السلوقية فى الفترة ٢٢٣ – ١٨٧ ق . م . كذلك عثر على قطعة تحمل صورة أنطيوكس الثالث وربما تكون سكت فى سوريا . وتظهر هذه العملات السلوقية فى جزيرة البحرين أيضاً ونجد فى بعضها صور الإسكندر المقدونى .

العمارة :

وقعت هاتان الجزيرتان العربيتان تحت السيطرة الرومانية التى ورثت الدولة الهيلينستية فى الشرق الأوسط . وكشفت الحفريات التى تمت فى الجزيرتين عن آثار وثيقة الصلة بآثار الشرق الأوسط الهيلنستية الرومانية .

فعثر فى جزيرة فيلكه على آثار قلعة مربعة طول ضلعها حوالى ٧٠ متراً ، وبكل ركن من أركانها الأربعة يوجد برج مربع . وينفذ الزائر إلى القلعة عن طريق بوابتين إحداهما بالجهة الشمالية والأخرى بالجهة الجنوبية . ويحتوى الجزء الشرقى من القلعة على معبدين أحداهما كبير والآخر صغير . ويشغل الجزء الغربى آثار مساكن . وتدل تيجان الأعمدة التى وجدت بالمعبد الكبير على أنه كان من الطراز الأيونى (ش ٤٧) على حين تدل تيجان الأعمدة التى عثر عليها فى المعبد الصغير أنه كان من الطراز الدورى . وتذكرنا النقوش المنحوتة فى قاعدة العمود بالأعمدة الفارسية التى وجدت فى برسيبوليس .

وتدل الآثار التى عثر عليها فى موقع المعبد أنه كان مشيداً على الطريقة الهندسية الإغريقية للآلهة الإغريقية ، حيث عثر على المذبح خارج المعبد . وربما شيد هذان المعبدان فى عصر الإسكندر الأكبر أو فى عهد أحد خلفائه السلوقيين الذين أكثروا من المراكز الهيلينية فى فترة حكمهم لنشر الثقافة الهيلينية .

النحت :

وجدت فى حفريات جزيرة فيلكه قوالب كثيرة من الآجر فى إحدى غرف منزل ،



(شكل ٤٧) أجزاء من عمود عثر عليه فى معبد فى جزيرة فيلكة (الكويت) ويلاحظ التاج الأيونى والقاعدة التى تذكرنا زخارفها بأعمدة برسيبوليس . العصر الهيلينستى.

(شكل ٤٨) تمثال من الطين المحروق لسيدة تذكرنا بتماثيل الإلهة أفروديت . العصر الهيلينستى ، حالياً بمتحف الكويت





(شكل ٤٩) تمثال من الطين المحروق لرجل عثر على الجسم وعلى الرأس مبعثرين ، إلا أنه أمكن تثبيت الرأس على الجسم . العصر الهيلينستى . حالياً بمتحف الكويت .

وعندما صبت هذه القوالب نتج عنها تماثيل لشخصيات آدمية رجح الباحثون نسبة أحدها إلى الإسكندر المقدونى ، كما نسب أحد التماثيل النسائية إلى إلهة النصر الإغريقية .

كذلك عثر على تماثيل من الطين المحروق يظهر فيها أسلوب من النحت الهيلينى ، ويوضح ذلك تمثال ربما يمثل الإلهة أفروديت (ش ٤٨) ورأس تمثال صغير ربما يمثل الملك الإسكندر أو أحد الملوك السلوقيين .

ويمثل طراز الفترة التالية تمثال من الطين المحروق يصور ملكاً فى وضع جالس (ش ٤٩) وتذكرنا لحيته وزيه بتماثيل ملوك العرب الذين حكموا الحضر فى القرن الأول الميلادى .

الفصل الرابع

شمال أفريقيا

تعتبر منطقة شمال أفريقيا أكثر الولايات الرومانية الواقعة فى جنوب البحر الأبيض المتوسط ثراء فى تعدد الآثار الرومانية . وتساعد دراسة هذه الآثار على معرفة طراز العهد الرومانى الشرقى الذى لم يعثر على آثار كافية له فى منطقة الشرق الأوسط .

بعد أن تم لروما القضاء على قـرطاج مركز الفينيقيين ، فى الحرب الفينيقية الثالثة (١٤٩ – ١٤٦ ق . م) ، بدأت تتدخل فى شؤون البلاد الواقعة على سواحل البحر الأبيض المتوسط . وكان يحكم أفريقيا الشمالية فى تلك الفترة ملوك محليون كانوا قد فقدوا نفوذهم المطلق بسبب احتلال الفينيقيين لبلادهم . حيث كان الفينيقيون يمسكون بزمام السلطة فى المنطقة التى تشمل تونس الآن وجزءاً من ولاية قسنطينة . أما بقية شمال أفريقيا فكانت مقسمة إلى عدة ممالك يحكمها ملوك برابره تحت إشراف قـرطاج أو بتحالف معها .

وكان مسينا ملك نوميديه (الجزائر حالياً) قد تمكن بانحيازه إلى الجانب الرومانى ضد قـرطاج من إقامة مملكة نوميدية كبيرة تمتد من مراكش (المغرب) إلى برقه (ليبيا) . وذلك بعد أن أمرت روما قـرطاج بتسليمه المدن الطرابلسية التى كانت تحت حكمه . إلا أن مسينا توفى فى السنة الأولى من الحرب الفينيقية الثالثة فى عام ١٤٩ ق . م .

وقد حاول حفيده « يوغرتا » مناهضة الحكم الرومانى فى شمال أفريقيا ، فنشبت بينه وبين روما حروبا جديدة انتهت بأسره عام ١٠٤ ق . م . وشنقه فى روما . وفى فترة النزاع التى قامت بين بومبى ويوليوس قيصر فى عام ٤٩ ق . م . انحاز الملك « يوبا الأول » ملك نوميديه إلى جانب بومبى . إلا أن قيصر تمكن من إنزال جنوده فى تونس بعد أن تم له النصر على خصمه فى عام ٤٨ ق . م .

انتهزت المدن الطرابلسية « لبده وصبراته وأويا » فرصة المنازعات القائمة بين روما والدولة النوميدية فوقعت معاهدة صداقة مع روما نالت على أثرها نوعا من الاستقلال الذاتى .

حلت روما محل قرطاج فى حكم شمال أفريقيا فى عهد يوليوس قيصر الذى أعاد تنظيم شمال أفريقيا بعد أن أزال المملكة النوميدية من الوجود . وجعل قيصر الجزء الأكبر من أقاليم شمال أفريقيا ولاية رومانية باسم إفريقيا الجديدة وعين عليها حاكما رومانيا .

ولقد كانت روما تترقب الفرصة لبسط نفوذها كاملاً على شمال أفريقيا ، ونجحت فى مد حكمها إلى شمال أفريقيا كله بعد انتصار أكتافيوس على أنطونيوس فى معركة أكتيوم وزوال حكم البطالمة لولاية برقة .

وباستثناء ولاية أفريقيا الجديدة الرومانية ، ترك الرومان حكم بقية البلاد الأفريقية إلى ملوكها المحليين ، فأعاد اكتافيوس « أغسطس » تكوين المملكة النوميدية ، ووضع على عرشها عام ٢٥ ق . م الأمير يوبا الثانى ليكون واليا على عرش أجداده .

وكان هذا الملك قد نشأ وتربى تحت رعاية أغسطس فى روما وتزوج من ابنة كيلوباترة من أنطونيو ، ولذلك تسربت الديانة المصرية إلى تونس والجزائر عن طريق هذه الملكة .

كانت هذه الدولة آخر مملكة وطنية حكمت شمال أفريقيا قبل الحكم الرومانى المباشر . ولقد استمر الاحتلال الرومانى لشمال أفريقيا حتى سقوط روما على يد الفندال . وتميز عهد تراجان (٩٨ – ١١٧) بانتعاش سياسى كما ازدهرت البلاد بصفة خاصة فى عهد الامبراطور سبتميوس سويروس ١٩٣ – ٢١١ .

ليبيا :

عرفت ليبيا الغربية عند الإغريق باسم « تريبوليس » ، وعربت إلى اسمها الحالى طرابلس . وتضم منطقة طرابلس ثلاث مدن رئيسية : « لبده الكبرى » – وعرفت عند الرومان باسم لبتس ما جنا – « وأويا » – طرابلس الحالية – « وصبراتة » الواقعة غرب

مدينة طرابلس . وتميزت مدينة لبده من بين مدن المنطقة بأنها كانت مركزاً تجارياً هاماً فى العهود الفينيقية والرومانية ، كما كانت لها عملة نقدية خاصة فى عهد الامبراطور أغسطس وخليفته طبيريوس . ونالت مدينة لبدة ازدهاراً واضحاً فى عهد الامبراطور سبتميوس سويروس (١٩٣ - ٢١١ م) الذى يرجح أنه كان من أصل ليبى .

كان تقسيم مدينة لبده يشبه كثيرا تخطيط المدن الرومانية ، وازداد نمو المدينة واتساعها باهتمام الأباطرة بها . وانشأ بها أحد أثرياء المدينة مسرحاً قدمه إلى الامبراطور أغسطس . وكان على هيئة مدرج نصف دائرى وأقيم على جانبى المسرح تمثالان للآلهة ديونيسوس وهرقل المكلفان بحماية لبده .

توالى إنشاء المبانى فى عهود الأباطرة الرومان ويمكن أن نميز من بينها مبنى « الكلكيديكوم » وملعباً مدرجاً . وأقام تراجان بالمدينة ميداناً وقوس نصر وبازيليكا ، كما شيد بها هادريان حمامات ضخمة بين عامى ١٢٦ - ١٢٧ .

وقد حظيت لبدة باهتمام عمرانى خاص من الإمبراطور سبتميوس سويروس الذى ينتسب إلى المدينة وابنه كاركالا ، فشيد بها الأول بازيليكا (ش ٥٠) (أتمها ابنه) وميداناً .

وتعتبر بازيليكا لبده من أفخر الآثار الباقية بها . ويزين الأعمدة المرمرية المتصلة بالجدران زخارف جميلة بها عناصر آدمية مع عناقيد العنب وأوراق الأكنتس (ش٥٠ ب) وتتشابه هذه الزخارف مع الزخارف المنقوشة على دعائم معبد بعلبك . وربما استعان سويرس بنحاتى أحجار من سوريا فى أعمال البناء الكثيرة التى قام بها لتجميل مسقط رأسه .

وتتميز مدينة صبراته ثانى مدن اقليم طرابلس بآثار متعددة ترجع إلى القرنين الأول والثانى من تأسيس الامبراطورية الرومانية . وكشفت أعمال الحفائر عن مسرح (ش ٥١) وبازيليكا وميدان أسوة بما هو متبع فى المدن الرومانية .

وبالاضافة إلى الآثار السابقة عثر فى شرق طرابلس على آثار إغريقية ورومانية فى مدينتى قورينه وطلميثه بولاية برقه وكانت هذه المدينة الأخيرة تابعة للبطالمة . وأطلق عليها بطليموس الثالث إسمه بعد أن تزوج من « برنيق » أميرة قورنيه . وأزدهرت مدينة

(شكل ٥٠) بازيليكا مدينة لبدة «ميدان سويروس» ليبيا . ويلاحظ فى شكل «ب» نقوش بارزة على الدعائم تتكون من تفريعات نباتية تحصر بينها عناصر حية .





(شكل ٥١) مسرح عثر عليه فى مدينة صبراتة ليبيا .



(شكل ٥٢) تماثيل الحوريات الثلاث .
آثار رومانية بمدينة قورنية شرق طرابلس ليبيا .



قطعة نسيج مزخرفة بوحدة أفروديت . الفن القبطى فى مصر . القرن الخامس — السادس .
حالياً بمتحف اللوفر



«سيدة من البلاط الساسانى» وحدة زخرفية ملونة وجدت بأرضية مغطاة بالفسيفساء فى قصر مدينة نيسابور . العصر الساسانى بإيران – النصف الثانى من القرن الثالث الميلادى.

بطليموس فى العهدين البطلمى والرومانى الذى بدأ عام ٧٤ ق . م .

انتشرت الفنون الهيلينستية من الإسكندرية إلى المراكز الإغريقية الأخرى . ولقد عثر فى طلميثة على قصر هيلينستى وميدان ومسرح . ويحتوى متحف المدينة على مجموعة من الفسيفساء كانت تزخرف المبانى ، وتظهر بها زخارف نيلية بها أسماك وطيور .

وتتميز مدينة قورينه حالياً « شحات » بآثار إغريقية ورومانية بديعة . فقد عثر بها على معابد ترجع إلى العصر الإغريقى للآلهة باخوس وهرمس كما عثر بها على معبد الآلهة زيورس من الطراز الدورى ومن أهم آثار المدينة حمامات انشئت فى عهد تراجان ورممت فى عهد هادريان ، ومسارح وأقواس نصر . ويضم متحف قورينه عدداً من التماثيل (ش ٥٢) التى عثر عليها فى المدينة . ويتضح من دراستها أنها تذكرنا بتماثيل الإلهة أفروديت الإغريقية .

الجزائر وتونس :

ومما يؤيد إنتقال الثقافة والتقاليد الهيلينستية من الشرق إلى شمال أفريقية عن طريق الإسكندرية منذ العصر البطلمى . تمثال من البرونز يصور ايروس (ش ٥٣) عثر عليه فى مياه شاطئ مدينة مهدية ويوجد حالياً بمتحف باردو بتونس .

وظهرت آثار هذه الثقافة فى العصر الرومانى فى فترة حكم الملك « يوبا الثانى » الذى اختار مدينة شرشال – حالياً الجزائر – لتكون عاصمة له . ولأن هذا الملك تربى فى روما نجد أنه حرص على نشر الفنون الرومانية فى عاصمته فشيد بها معبداً ومسرحاً وحماماً ومدرجات وبازيليكا وأقواس نصر . واقتبس المهندسون والمثالون الذين استعان بهم من فنون روما وأثينا والاسكندرية .

وانتشرت الفنون الرومانية فى مراكز مملكة « يوبا الثانى » ، تيبازا وقرطاج وطنجة ولما زادت أهمية أفريقيا فى عصر الامبراطور تراجان لكونها المورد الذى يرسل القمح إلى الامبراطورية ، انتشرت العمائر الرومانية فى المراكز تيمقاد وتبديس ولا مبيز وتيبازه وجملاى وجميلة .

ولقد كشفت الحفريات التى تمت فى مدينة تيمقاد على ان المدينة كان بها حمامات

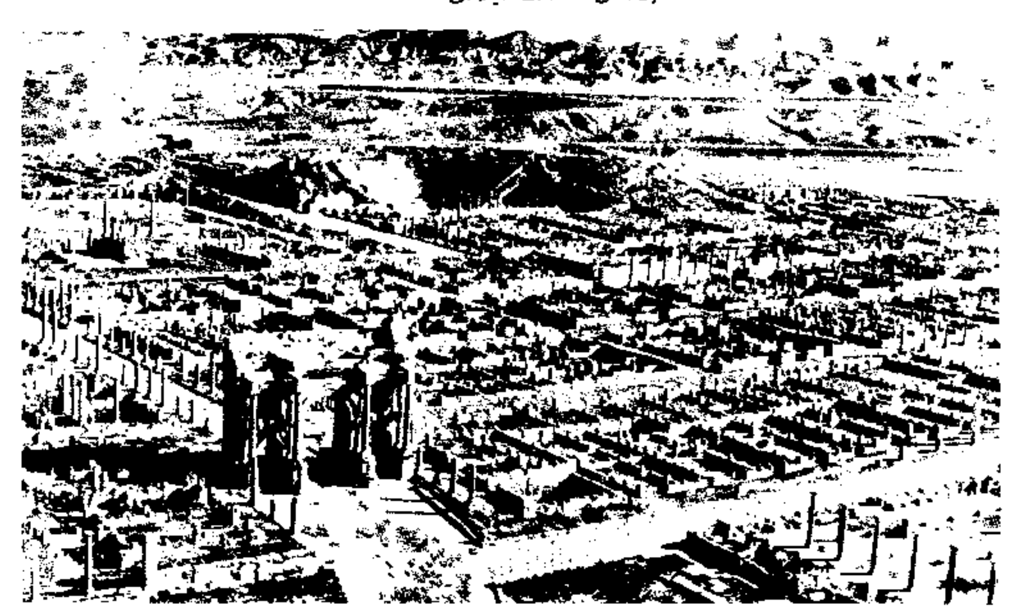
(شكل ٥٣) تمثال من البرونز يصور الإله إيروس ، حالياً متحف باردو ، تانس .





(شكل ٥٥) تاج عمود كورنثى عثر عليه فى حمامات أنطونين ، قرطاج .

(شكل ٥٤) آثار رومانية بمدينة تيمقاد (الجزائر حالياً) ويظهر فى المقدمة بوابة تراجان وفى المؤخرة المسرح .
القرن الثانى – الثالث الميلادى



ومكتبة وقوس نصر أقامه الامبراطور تراجان (ش ٥٤) . وكانت هذه المدينة رباطا للجنود فى أول الأمر ثم تحولت إلى مدينة كبيرة بعد ذلك . كما تحتوى مدينة تبسه على معبد رومانى وقوس نصر أقامه الامبراطور كراكالا .

عثر فى المراكز التونسية أيضاً على عمائر إغريقية رومانية ، ويتضح ذلك فى آثار مدينة قرطـاج التى ازدهرت فى القرن الثانى الميلادى ، فعثر بها على معبد للاله أبولو وحمامات ومسارح ، وكانت تزين هذه العمائر أعمدة ذات تيجان كورنثية (ش ٥٥) .

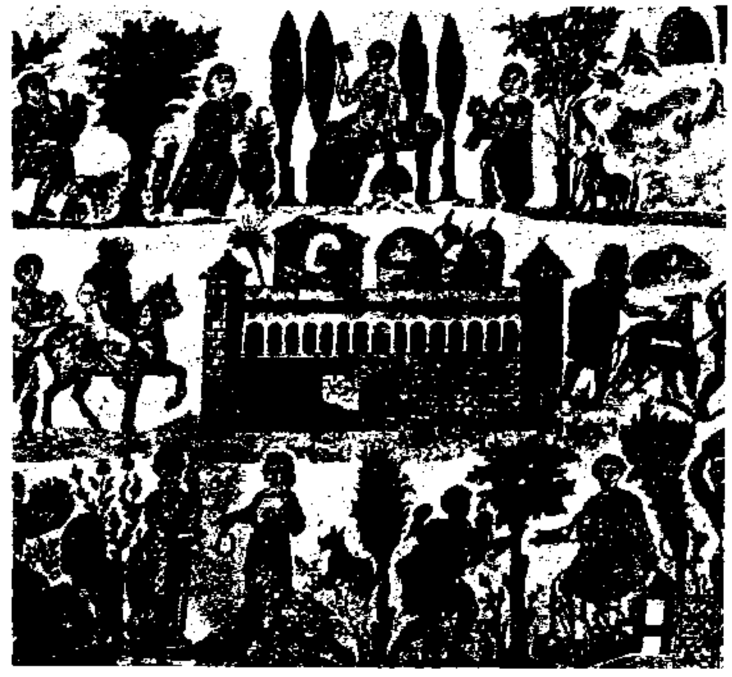
كان لمصر تأثير واضح فى فنون عاصمة الملك يوبا الثانى المتزوج من ابنة كليوباترة السابعة ، حيث عثر فى مدينة شرشال على تماثيل للإلهة المصرية أيزيس مرتدية زيا رومانيا (ش ٥٦) ، كما عثر على أوان ومسكوكات من بينها قطعة ذهبية منقوشة بصورة الملكة كليوباتره السابعة .

ومن أجمل ما عثر عليه فى هذه المدن من الفنون الرومانية ، زخارف الفسيفساء التى تحتفظ متاحف تونس والجزائر بمجموعات كبيرة منها . ولقد عثر فى مدينة شرشال على فسيفساء توضح شكل العمائر المدنية الرومانية . ولقد انتقل طراز فسيفساء الاسكندرية إلى شمال البلاد التونسية فى أول الأمر ، لذلك كانت الزخارف الأولى تشتمل على الموضوعات النيلية المفضلة فى الإسكندرية .

وكان أهم ما أنتجته تونس هو فن الفسيفساء ، وقد عرف القرطاجنيون هذا الفن عن طريق اليونان منذ القرن الثالث ق . م . وظهرت آثار منه فى مدينة كركوان وبعض منازل قـرطاج القديمة قبل تدميرها وإنشاء مدينة رومانية على أنقاضها . وذاع صيت المدينة بصفة خاصة فى القرن الرابع وكان لفسيفسائها طابع خاص . ويتضح ذلك فى أرضية عثر عليها فى منزل تصور قصر وحديقة السيد جوليوس (ش ٥٧) صاحب المنزل .

ولا تقل فسيفساء المراكز الجزائرية فى جمال الموضوعات عن المراكز التونسية ، ويتضح ذلك فى فسيفساء عثر عليها فى منزل فى مدينة لامبيز تصور حوريات على ظهر حيوانات بحرية خرافية (ش ٥٨) . وهذه من المواضيع التى انتشرت فى زخارف الفن الإغريقى الرومانى فى الشرق الأوسط .

(شكل ٥٦) تمثال من الحجر يصور الإلهة المصرية إيزيس مرتدية زيًّا رومانيًّا بمتحف الجزائر .





(شكل ٥٧) فسيفساء عثر عليها فى قرطاج تصور ضيعة السيد جوليوس وما تحتويه من مبان وأشجار وحيوانات . القرن الثانى أو الثالث بعد الميلاد - حاليًّا متحف باردو . تونس

(شكل ٥٨) فسيفساء عثر عليها فى منزل بمدينة لامبيز حاليًّا بمتحف المدينة . الجزائر .



الباب الثانى

العصر المسيحى فى الشرق (القرن الرابع القرن الخامس عشر الميلادى)

تمهيد تاريخى :

ظهر الدين المسيحى فى فلسطين فى أوائل عهد الإمبراطور كاليجول (٣٧ - ٤١ م) وانتشر فى خلال الخمسة قرون التالية بين شعوب الإمبراطورية الرومانية . ولقد عارضت الدولة الحاكمة بطبيعة الحال الدين الجديد ، وبدأت سلسلة من الاضطهادات منذ عصر الإمبراطور نيرون (٥٤ - ٦٨ م) . وكثر الاضطهاد فى القرن الثالث وأوائل الرابع فى عهد الأباطرة دسيوس (٢٤٩ - ٢٥١ م) وفاليريان (٢٥٧ - ٢٥٨ م) . إلا أن التنكيل بلغ أشده فى عهد دقلديانوس (٢٨٤ - ٣٠٥ م) الذى أصدر مرسوماً بذلك عام ٣٠٣ م . وقلت هذه الاضطهادات بالتدريج فى أنحاء الإمبراطورية فى الغرب بعد استقالة دقلديانوس ، وفى الشرق بعد المرسوم الذى أصدره جاليريوس عام ٣١١ م .

وعندما تولى قسطنطين (٣١٣ - ٣٣٧ م) حكم الإمبراطورية ، ترك الحرية كاملة لممارسة الدين الجديد ، وذلك بعد انتصاره على معارضيه وإصدار مرسوم ميلان عام ٣١٣ م . وبالرغم من أن قسطنطين كان متعاطفاً مع الدين الجديد ، فإنه لم يعتنقه إلا بعد عام ٣٢٤ م . وبذلك صار الدين المسيحى تقريباً دين الدولة الرسمى .

نقل قسطنطين مركز حكم الإمبراطورية الرومانية الموحدة من روما إلى الشرق ، واختار مدينة بيزنطة لتكون موقعاً للعاصمة الجديدة التى أطلق عليها القسطنطينية . تولى حكم الإمبراطورية بعد أسرة قسطنطين ، ثيودوسيوس العظيم (٣٧٩ - ٣٩٥ م) الذى أحيا المسيحية وأصدر مرسوماً بإغلاق المعابد الوثنية . وكان آخر الأباطرة الذين حكموا إمبراطورية موحدة امتدت من فرنسا فى الغرب إلى بغداد فى الشرق ، حيث

انقسمت الإمبراطورية بعد وفاته بين أبنائه إلى شرقية عاصمتها القسطنطينية وغربية عاصمتها روما . وكانت بلاد الشرق الأوسط تابعة للإمبراطورية الشرقية .

وبينما سببت الحروب التي خاضتها الإمبراطورية الغربية مع أعدائها إنهيارها ، نجد أن الإمبراطورية الشرقية التي لم تحارب إلا الفرس تواصل ازدهارها ، وعندما تولى جستنيان (٥٢٧ – ٥٦٥ م) حكم الإمبراطورية الشرقية ، كان العالم البيزنطى يشمل شبه جزيرة البلقان فى أوربا وسوريا وبلاد الأناضول فى آسيا ، ومصر فى أفريقيا . ويعرف عهده بالعهد الذهبي الأول للحضارة البيزنطية .

وتمكن جستنيان من توسيع الإمبراطورية بالاستيلاء على شمال أفريقيا وجنوب أسبانيا وجزز البليار . إلا أنه انهزم أمام خسرو العظيم الحاكم الساسانى . ولقد تخلل حكم الدولة البيزنطية حروب مع دولة الساسان الفارسية ، كان يهدئ من حدتها بعض معاهدات السلام التي كانت توقع بين الأباطرة البيزنطيين والفرس .

تمكن هرقل (٦١٠ – ٦٤١ م) من طرد الفرس من ممتلكات الإمبراطورية . إلا أن الأمة الإسلامية التي نشأت فى شبه الجزيرة العربية تمكنت من الاستيلاء على سوريا وفلسطين ومصر بعد انتصارها فى موقعة اليرموك . وقد تمكن الإمبراطور ليون الثالث (٧١٧ – ٧٤٠ م) من صد هجوم العرب على القسطنطينية فى عام (٧١٧ – ٧١٨ م) . ولقد بدأ صراع فى عهده بين رجال الكنيسة بين مؤيدين ومعارضين لاستخدام التصوير وسيلة فى الإرشاد الدينى بعد إصداره مرسوماً بذلك عام ٧٢٦ م . إلا أن ابنه قسطنطين الخامس (٧٤٠ – ٧٧٥ م) أصدر مرسوماً ثانياً عام ٨٤٢ م بإعادة الصلة بين الكنيسة والفن . وانتهى النزاع فى عام ٨٤٣ م بواسطة الإمبراطورة ثيودورا .

عادت للإمبراطورية أمجادها فى عهد الأسرة المقدونية التي أسسها بازيل الأول (٨٦٧ – ٨٨٦ م) ومن أشهر حكامها قسطنطين السابع (٩١٣ – ٩١٩ م) الذى أعاد مجد الإمبراطورية البيزنطية . وامتدت حدود الدولة حتى روسيا فى عهد بازيل الثانى (٩٦٣ – ١٠٢٥ م) . وتعرف هذه الفترة بالعهد الذهبي الثانى للحضارة والفنون البيزنطية .

توالى على حكم الدولة البيزنطية عدد من الأسر حتى عام ١٤٥٣ الذى استولى فيه

محمد الفاتح العثمانى على القسطنطينية . إلا أن الحضارة والفنون البيزنطية استمر ظهورها لعدة قرون فى روسيا وفى دول البلقان .

كان الطراز الفنى الذى أتى فى أعقاب العصر الهيلنستى (الإغريقى الرومانى) طرازاً دولياً مسيحياً استمر من القرن الرابع حتى القرن السادس . ولقد تطور هذا الفن فى البلاد الغربية وفى الشرق وطرأت عليه تغيرات ارتبطت كلها بالعقيدة المسيحية الجديدة .

وبطبيعة الحال لم يكن لهذا الفن المسيحى مركز خاص ينبع منه وينسب إليه ، بل نجد أن الشعوب قد مارسته فى وقت واحد فى مراكز الإمبراطورية المختلفة مثل روما والإسكندرية وأنطاكية . . إلخ . وكان الفن المسيحى فى كل من هذه المناطق المختلفة متأثراً بأساليب الفن المحلى . ولقد أدى انقسام الإمبراطورية الرومانية إلى شرقية وغربية إلى ظهور فن مسيحى شرقى عرف بالفن البيزنطى . وسوف نتتبع فى الشرق أيضاً الفنون الميسيحية فى الفن القبطى المصرى والفن المسيحى فى سوريا وشمال أفريقيا .



الفصل الأول

القسطنطينية ـــ الفن البيزنطى

كانت بيزنطة التى اختارها قسطنطين لتكون مركزاً للعاصمة الإمبراطورية الرومانية بدلا من روما العاصمة القديمة الوثنية ، مدينة صغيرة أنشأها الإغريق عام ٦٥٠ ق . م على بحر مرمرة . ولقد ساعد موقعها الجغرافى بين الشرق والغرب على أن تكون مركزاً تجارياً هاماً فى العصر الإغريقى الرومانى . وأصبحت للعاصمة الجديدة قسطنطينية [١] بعد أن انتقل إليها قسطنطين فى عام ٣٣٠ م ، نفوذ سياسى ودينى ينافس نفوذ روما . وكانت الثقافة خليطاً من الحضارة الإغريقية الهيلينستية وتأثيرات رومانية أتى بها الرومان النازحون إلى العاصمة المسيحية . وصارت القسطنطينية منذ القرن السادس المركز الرئيسى للحضارة والفن البيزنطى حتى سقوطها فى أيدى الأتراك فى منتصف القرن الخامس عشر .

والفن البيزنطى الذى بدأ نهضته الأولى فى القرن السادس ، هو المرحلة المسيحية للفن الإغريقى الرومانى فى الشرق ، أى أنه طراز مشتق من امتزاج عناصر من روما ومن العالم الهيلينستى مع عناصر شرقية محلية ، خضعت بعد انصهارها لتأثيرات من الدين الجديد . لذلك يجب على دارس الفن البيزنطى أن يكون ملماً بفنون الشرق الأوسط التى أثرت فيه . فمن بلاد النهرين وإيران انتقلت عناصر من الفن الساسانى ، كما ظهرت به عناصر من الفن الهيلينستى الذى كان منتشراً فى الإسكندرية وسوريا وفى المدن الصحراوية . ولقد وجدت فى الفن البيزنطى عناصر من الفن الحيثى الذى نشأ فى آسيا الصغرى . كما يمكن الرجوع إلى العالم الكلاسيكى فى فن التصوير البيزنطى .

ولقد ساعد على تكوين الطراز البيزنطى الإيمان بالدين المسيحى الذى استقرت قواعده فى القرن السادس [٢] فى عهد الإمبراطور جستينيان . ويمكن مقارنة النهضة

(١) احتفظ العلماء بالاسم القديم بيزنطة لوصف الثقافة والفنون المسيحية التى ظهرت فى الشرق .

(٢) لم تكن الديانة مستقرة ، حيث شجع الإمبراطور جوليان (٣٦١ — ٣٦٣ م) على الرجوع إلى الوثنية .

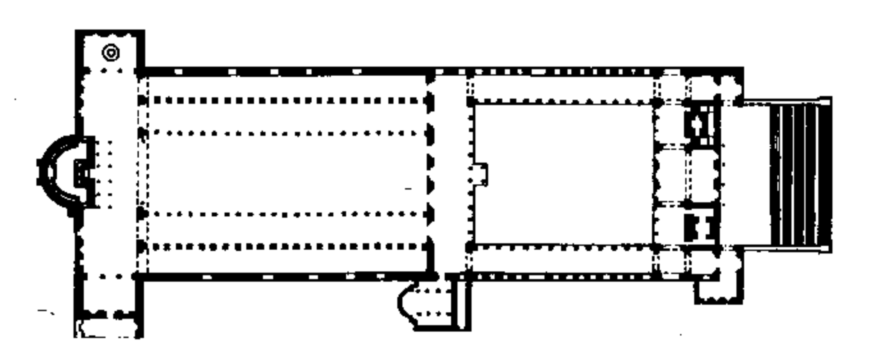
الفنية التى ظهرت فى عصره بالازدهار الذى ظهر فى أوربا فى عصر النهضة . ولقد انتاب الفن البيزنطى فترة خمول منذ الفترة التى كثر فيها الصراع بين رجال الكنيسة فى القرن الثامن حول استخدام الفن كوسيلة إرشاد دينى . إلا أنه ازدهر مرة ثانية فى العهد الذهبى الثانى للفن البيزنطى . وكان من أهم مظاهر النشاط الفنى الذى صاحب التغيير الدينى ، انتشار المبانى المسيحية البيزنطية فى المدن المهمة . لذلك نجد أن المسيحية لم تقتصر على كونها إحدى العوامل التى أثرت فى تطور الفن البيزنطى ، بل كانت أهم العناصر التى كونته .

العمارة :

نشطت الحركة المعمارية بعد ظهور المسيحية . ومن أهم نشاط ذلك العصر المبانى الدينية التى داوم الأباطرة على إقامتها لإحياء رسالة الدين . وينقسم طراز المبانى الدينية إلى قسمين : الأول قبل انتقال العاصمة إلى الشرق والثانى بعد تشييد القسطنطينية حيث تظهر فى الفن الرومانى المسيحى تأثيرات شرقية .

عمارة الكنيسة :

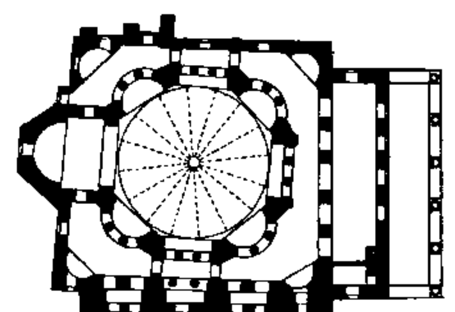
عندما انتشرت المسيحية فى عهد قسطنطين كان تصميم العمائر الدينية الأولى (رسم ١) مقتبسا من البازيليكا الرومانية ذات السقف الخشبى وليس من المعابد

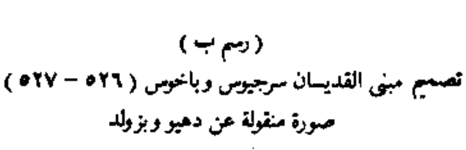


(رسم ١) تصميم كنيسة القديس بطرس القديمة بروما

الوثنية . وذلك لأن البازيليكا التى كانت تستخدم لأغراض دنيوية ، يوجد بها من الداخل مكان متسع يصلح للاجتماعات بعكس المعابد الوثنية التى كانت طقوس العبادة تقام خارجها . ولقد أطلق على هذا النوع من الكنائس (ش ٥٩) « الكنيسة البازيليكية » .

وبعد انتقال عاصمة الدولة الرومانية إلى بيزنطة ، ظلت البازيليكات (ش ٦٠) الطراز السائد فى أوربا حتى آخر القرن الثامن ، على حين نشأ فى الدولة الشرقية الطراز البيزنطى منذ القرن السادس ، ظل سائداً إلى وقت فتح العثمانيين القسطنطينية .



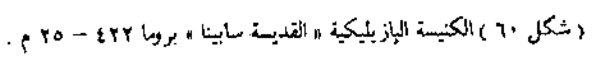


(رسم ب)
تصميم مبنى القديسان سرجيوس وباخوس (٥٢٦ – ٥٢٧)
صورة منقولة عن دهيو وبزولد

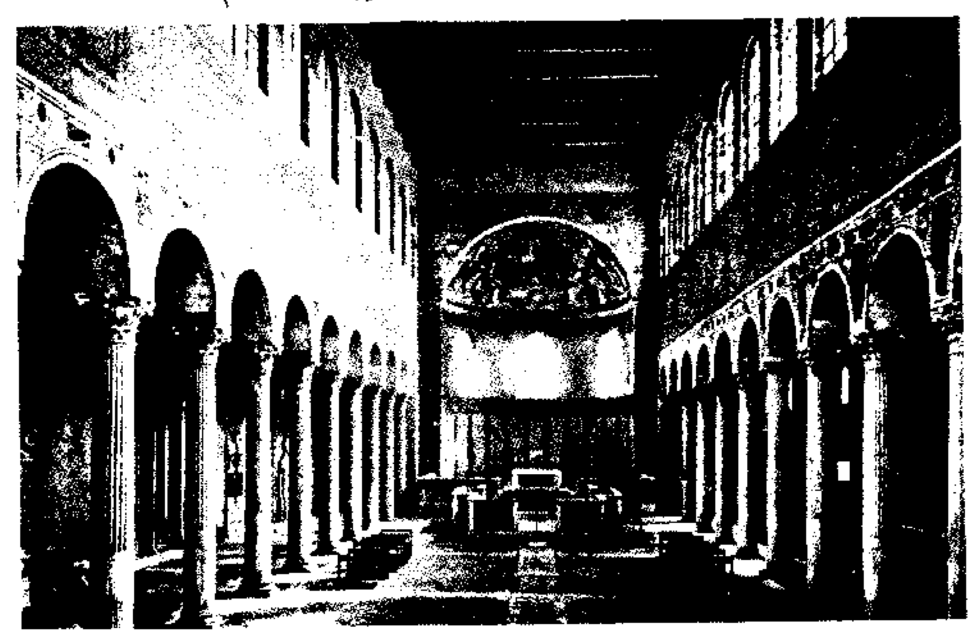
كانت العمائر الدينية التى شيدت فى القرن السادس فى أنحاء الإمبراطورية الرومانية تنقسم إلى أربعة طرز مختلفة : (١) الكنيسة البازيليكية ذات السقف الخشبى مثل كنيسة القديسة مارى بالقسطنطينية وكنيسة القديس أبولينار فى رافينا ، (ش ٦١) . (٢) المبانى التى تعتمد على تصميم مركزى مثل مبانى التعميد المستديرة أو المتعددة الأضلاع مثل مبنى القديسين سرجيوس وباخوس فى القسطنطينية (٥٢٦ – ٥٣٧م) (رسم ب) و (ش ٦٢) وكنيسة القديس فيتال فى رافينا. (٣) الكنيسة المغطاة بقبة مثل كنيستى القديسة إيرين ٤٣٢ م والقديسة صوفيا (٥٣٢ – ٣٧٠) بالقسطنطينية (رسم حـ) . وكان هذا الطراز مقتبساً من الطرازين السابقين . (٤) الكنيسة التى يعتمد تصميمها على الصليب الإغريقى المتساوى الأضلاع . وهذا طراز بيزنطى صرف ظهر فى القرن السادس وفيه تعلـو قبة مركز تقاطع أضلاع الصليب



(شكل ٥٩) كنيسة القديس بولس القديمة بروما . « نقلاً عن رسم ج . ب . بيرانيزى ، ١٧٤٩ »



(شكل ٦٠) الكنيسة البازيليكية « القديسة سابينا » بروما ٤٢٢ – ٢٥ م .

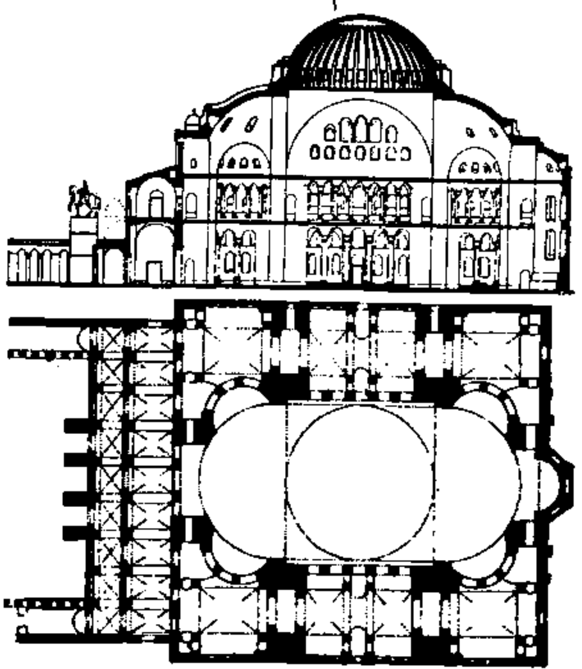




(شكل ٦١) كنيسة القديس أبولينار نوفو ، رافينا .

(شكل ٦٢) كنيسة القديسين سرجيوس وباخوس باسطنبول (القسطنطينية) ٥٢٦ – ٣٧ .

الإغريقى الموجود داخل مربع ، وظهر هـــذا الأسلوب فى كنيسة الرسل المقدسة بالقسطنطينية[١] (٥٣٦ - ٥٤٦) (رسم د) .



(رسم حـ) تصميم وقطاع فى كنيسة القديسة صوفيا . القسطنطينية . (منقول عن جرلت ، سيبل)

تعتبر كنيسة القديسة صوفيا (ش٦٣) أعظم العمائر التى شيدها الإمبراطور جستينيان عند تعميره للعاصمة . وكانت تعد فى تلك الفترة مفخرة العمارة البيزنطية كما أن لها أهمية خاصة فى تاريخ العمارة للابتكارات التى ظهرت بها . ولقد ذاع صيتها وعرفت أسماء مصمميها الإغريق[٢] . وقد تحولت إلى مسجد بعد الفتح العثمانى وأضيف إليها أربعة مآذن كما غطيت زخارف الفسيفساء المصورة بطبقة من الجير الأبيض .

يتضح من دراسة كنيسة أياصوفيا أن تصميمها يجمع بين عناصر مختلفة . فيظهر بها المحور الطولى المعروف فى الكنائس البازيليكية ، إلا أن الجزء المتوسط من الرواق

---

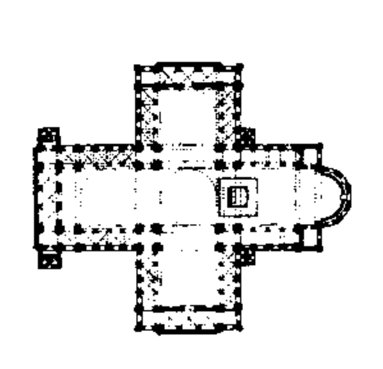
(١) هدم الأتراك هذه الكنيسة وشيدوا مسجداً مكانها .

(٢) عرف من بينهم أنثيمسنوس وإيزيدوروس .

البازيليكى يتوسطه مربع يعلوه قبة ضخمة . وتغطى بقية الإيوان أنصاف دوائر من كل جانب وبذلك يأخذ الرواق الشكل البيضاوى . ويتصل بأنصاف الدوائر حنيتان مستديرتان فى الأركان . وتعتمد القبة الرئيسية على أربعة عقود تنقل ثقل الدائرة إلى الدعائم المقامة فى أركان المربع (رسم هـ) وبذلك لا يكون للجدران الموجودة أسفل العقود أى دور وظيفى ، ويربط العقود الأربعة محيط دائرة القبة وذلك عن طريق حنايا الأركان المثلثية . ولقد استخدمت هذه الحنايا فى تحويل المربع إلى دائرة . وينفذ النور إلى الداخل عن طريق نوافذ كثيرة فى الأسطوانة التى تحمل القبة .

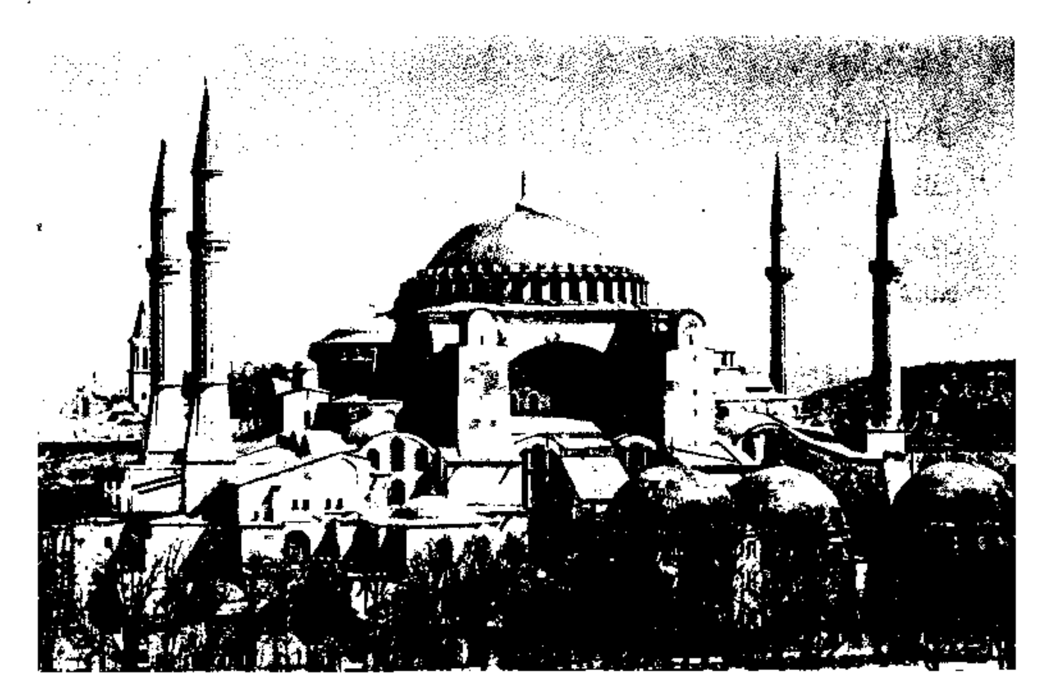


(رسم هـ) تحويل المربع إلى دائرة فى كنيسة القديسة صوفيا

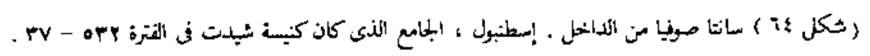


(رسم د) يضم كنيسة الرسل المقدسة . القسطنطينية (منقول عن دهيو وبزولد)

وهذا الطراز الذى توصل إليه المهندسون البيزنطيون ، البانثيون يسمح بتشييد مبنى عال أكثر إضاءة (ش ٦٤) من المبانى القديمة ذات القبة مثل البانثيون الرومانى وكنيستى القديسة كونستانزا وسان فيتال ، حيث كانت القبة تعلو مساحة مربعة أو متعددة الأضلاع . وفكرة تشييد قبة كبيرة متسعة على مربع كانت من ابتكار الفرس ، إلا أن العقود التى تحمل القبة وأنصاف القباب المتصلة بها يغلب أن يكون من ابتكارات فن المعمار البيزنطى . ولقد ورث البيزنطيون بطبيعة الحال كثيراً من أساليب العمارة والهندسة الرومانية ، كما إقتبسوا كثيراً من العناصر الفارسية وأيضاً من العمارة السورية .



(شكل ٦٣) سانتا صوفيا من الخارج باسطنبول ، الجامع الذى كان كنيسة شيدت فى ٥٣٢ – ٣٧ .



(شكل ٦٤) سانتا صوفيا من الداخل . إسطنبول ، الجامع الذى كان كنيسة شيدت فى الفترة ٥٣٢ – ٣٧ .



لم يظهر نظير لهذه الكنيسة فى العالم البيزنطى بعد ذلك ، سواء كان ذلك فى الاتساع أو فى الروعة ، وانعكس تأثيرها على عدد من الكنائس التى شيدت بعد ذلك مثل كنيسة القديسة صوفيا بسالونيكا . واستمر ظهور هذا التأثير فى تركيا حتى القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، حيث نشاهد ذلك فى المساجد العثمانية التى شيدها الأتراك فى القسطنطينية .

ومن أهم الطرز البيزنطية التى نشأت فى عهد جستنيان الكنيسة المشيدة على تصميم يتساوى فيه المحور الطولى مع المحور العرضى أى على هيئة الصليب الإغريقى . وتتعدد القباب فوق هذا النوع من الكنائس . فبالإضافة إلى القبة التى تغطى مركز تقاطع أضلاع الصليب ، تظهر كما ذكرنا قباب فوق أضلاع الصليب الأربعة . وأشهر كنيسة من هذا الطراز كنيسة الرسل المقدسين (ش د) . ولقد انتقل هذا النموذج ذو القباب الخمسة إلى كنائس كثيرة أشهرها كنيسة القديس مرقص المشيدة عام (١٠٦٣ — ١٠٩٥) بالبندقية (ش ٦٥) .

ولا تظهر تصميمات جديدة فى عمارة الكنائس البيزنطية منذ القرن العاشر حتى نهاية العصر البيزنطى . واقتصر ما وجد على بعض تعديلات فى البناء وبصفة خاصة فى الزخارف . كما زاد ارتفاع الكنيسة بزيادة ارتفاع القبة .

انتقل تأثير العمارة البيزنطية إلى الإمبراطورية الرومانية الغربية فى القرن السادس ويظهر ذلك الطراز البيزنطى فى كنائس مدينة رافينا التى اتخذها بعض الأباطرة الرومان [١] عاصمة للإمبراطورية الغربية بدلاً من روما . ويتضح ذلك فى كنيسة القديس أبولينار نوفو [٢] ، وفى كنيسة القديس فيتال التى أتم تشييدها الإمبراطور جستينيان فى عام ٥٦٥ فى أواخر حكمه .

كانت الكنائس البيزنطية تشيد عادة بالآجر فى أغلب مناطق الإمبراطورية

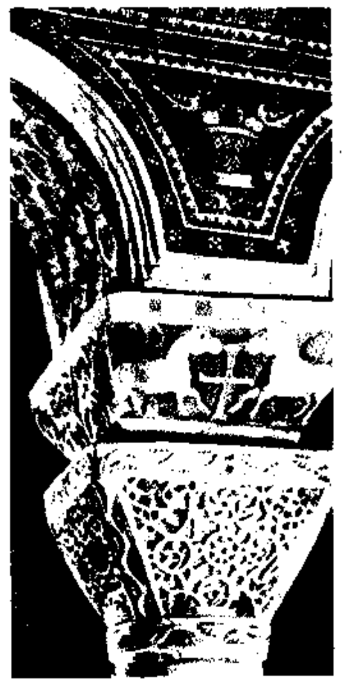
---

(١) اتخذ الإمبراطور أونوريو رافينا عاصمة للإمبراطورية بدلا من روما فى عام ٤٠٢ ، كما كانت عاصمة دولة القوط ٤٩٢ — ٥٣٩ فى عهد الملك تيود وريكو.

(٢) أقام تيود وريكو كنيسة بجوار قصره بمدينة رافينا عام ٥١٠ أطلق عليها المسيحيون الكاثوليك اسم سان ماريتو ذات السقف الذهبى .

(شكل ٦٥) كنيسة القديس مرقص من الخارج ، البندقية ويظهر فيها القباب الخمس ١٠٦٣ – ١٠٩٥ .

(شكل ٦٦) تاج عمود من كنيسة القديس فيتال ، رافينا ٥٣٠ .



(شكل ٦٧) تاج عمود من كنيسة القديسة صوفيا .

(القسطنطينية – شبه جزيرة البلقان – بلاد اليونان – بلاد النهرين – مصر) ، على حين استخدم الحجر فى مناطق قليلة (سوريا – بلاد الأناضول – كريت – قبرص) .
ولم يهتم البيزنطيون بزخرفة الكنائس من الخارج . إلا أنهم وجهوا عناية خاصة بزخرفها من الداخل بحشوات زخرفية من الرخام والفسيفساء .

وظهرت أهمية العمود الوظيفية فى العمارة البيزنطية وكان يستخدم بكثرة فى عهد الرومان الوثنى فى الأغراض الزخرفية ، واستبدل العمود فى بعض الحالات بدعائم مربعة . واستمد البيزنطيون أشكال تيجان أعمدتهم من بعض الطرز الرومانية بعد أن أدخلوا عليها أشكالا مبتكرة .

وكانت زخارف تيجان الكنائس الغربية التى ترجع إلى العصر البيزنطى (ش ٦٦) متأثرة بنماذج من كنيسة سانتا صوفيا (ش ٦٧) . ويظهر فى بعض الأعمدة تاج مكون من جزءين ، الجزء الأسفل وهو التاج الأصلى يظهر به زخارف منحوتة نحتا دقيقاً ، والجزء العلوى وهو تاج إضافى تختلف زخارفه عن زخارف التاج الأصلى ، وتزين نقوشه غالباً الصليب أو حيوانات رمزية .

النحت على الحجر :

نلاحظ فى دراسة الفن البيزنطى أن النحت الكامل لا وجود له فى الكنائس البيزنطية ، ويرجع ذلك للتعليمات الدينية التى نادت بها القسطنطينية[١] التى حرمت استعمال التماثيل الآدمية فى الكنائس وإحلال الصور محلها .

واقتصر فن النحت البيزنطى على أشكال مصورة بارزة من الأسطح الحجرية . وتظهر هذه النقوش البارزة على ألواح التوابيت الحجرية (ش ٦٨) وتشتمل عناصرها على أشخاص وحيوانات وطيور ونباتات حية ورموز مسيحية . واستخدم هذا الفن على نطاق واسع فى الكنائس . ومن أجمل الحشوات الحجرية المنقوشة بزخارف نباتية

---

(١) أصدر الإمبراطور ليون الأرمنى قانوناً عام ٧٥٢ يحرم على الفنانين عمل أو رسم صور آدمية ونفى بطريك القسطنطينية الذى كان ينادى بأن الرؤية تساعد على الإيمان أكثر من السمع . ونلاحظ أن روما استخدمت التماثيل فى الكنائس وبخاصة فى العصرين الرومانسكى والقوطى .



(شكل ٦٨) تابوت حجرى منقوش بزخارف مسيحية – القرن الخامس . حالياً بمتحف الآثار . إسطنبول .



(شكل ٦٩) كنيسة أختمر بالقرب من بحيرة فان أرمينيا . شيدت فى عصر الملك جاجيك فى الفترة ٩١٥ – ٩٢١



(شكل ٧٠) فسيفساء عثر عليها فى أرضيات القصر الإمبراطورى بالقسطنطينية ، القرن الخامس .

ما وجد على ألواح المنابر والمذابح وتيجان الأعمدة . ولقد انتقل أسلوب زخرفة الأسطح الحجرية عن طريق نحتها إلى أنحاء الإمبراطورية . وتشهد بذلك النقوش الموجودة على كنيسة ببلدة اختمر بأرمينيا (ش ٦٩) التى ترجع إلى الفترة ٩١٥ - ٩٢١ .

التصوير :

عبر الرومان عن موضوعاتهم المسيحية المصورة بعدة أساليب : الفسيفساء ، التصوير الجدارى ، الأيقونة والمخطوطات .

الفسيفساء :

تعتبر الفسيفساء من أهم مظاهر الفن المسيحى التى ازدهرت فى العصر البيزنطى . وكانت الفسيفساء أهم الفنون المكملة للمعمار فى الكنائس البيزنطية ، حيث غطيت بها الأرضيات والقباب والعقود والجدران . وبالرغم من أن هذا الفن كان معروفاً فى العصر الإغريقى الرومانى ، إلا أن أهميته زادت عندما استخدمه البيزنطيون بكثرة فى عرض الموضوعات الدينية فى داخل الكنائس كوسيلة إعلامية .

وحلت الموضوعات الدينية المستمدة من الكتب المقدسة محل الموضوعات الدنيوية التى كانت مستخدمة من قبل فى القصور لتمجيد الحكام وتسجيل هواياتهم المفضلة . ولقد وجدت نماذج لهذا الفن الدنيوى فى أوائل العصر البيزنطى ، حيث عثر على أرضيات من الفسيفساء فى قصر الإمبراطور بالقسطنطينية (ش ٧٠) ترجع إلى القرن السادس ، وفى بعض قصور أنطاقية . إلا أن هذه النماذج المشتقة من أمثلة هيليستية لا تدخل تحت نطاق الفنون البيزنطية المسيحية .

وتتلخص طريقة تنفيذ الفسيفساء فى عمل تصميمات زخرفية من مكعبات صغيرة منتظمة من الزجاج أو الرخام الملون ، تثبت فوق عجينة من الجص أو الأسمنت تغطى السطح . وبعد ما يجف الأسمنت وتتماسك القطع يظهر التصميم المطلوب . وكانت خلفية التصميمات تزخرف أحيانا بالفسيفساء الذهبية . وأغلب فسيفساء الأرضيات والجدران توضع مكعباتها أفقية ، فى حين إن مكعبات القباب يظهر بها

نوع من البروز. واختلفت الفسيفساء التي تغطى الأرضيات عن فسيفساء الجدران فى الخامة وفى الموضوع . فكان يظهر بها موضوعات أسطورية وزخارف هندسية كما لم يستخدم فيها الزجاج .

وللأسف دمر كبير من فسيفساء القرن السادس[1] التى وجدت بالقسطنطينية . كما أن كنيسة الحواريين القديسين الموجودة بالقسطنطينية كان بها صور من حياة المسيح ، كذلك وجدت فسيفساء مصورة فى كنيستى القديس سرجيوس والقديس أسطفان بغزة .

ومن أهم نماذج الفسيفساء التى وجدت فى الكنائس الشرقية فسيفساء ترجع إلى القرنين السادس والسابع وجدت فى كنيسة القديس ديميترى بسالونيكا ، ولقد كشف عنها عام ١٩٠٧[2] . وتظهر فى الزخارف الباقية صورة لمؤسس الكنيسة واقفاً مع القديس (ش ٧١) ويلاحظ فى تكوين هذه الصورة الجفاف وجمود الحركة ورسم الأشخاص فى وضع المواجهة بوجوه شاخصة ، وهذا ما يميز النمط البيزنطى . وتعتبر هذه الصور . من القطع البيزنطية الجميلة التى صممت بأسلوب قصصى تاريخى ، ولاتقل فى تنفيذها عن زخارف كنيسة القديس أبوليناريونوفو التى تعتبر من أجمل نماذج هذا الفن .

انتشر تأثير طراز القسطنطينية فى فسيفساء كنائس الغرب ، ويظهر ذلك بصفة خاصة فى مدينة رافينا فى كنيستى سان أبوليناريونوفو وسان فيتال التى كان الإمبراطور جستنيان أمر بزخرفتهما . وللكنيسة الأولى أهمية فنية كبيرة حيث توضح صورها تطور فن الفسيفساء فى عهدين متتاليين ، العهد المسيحى الأول (٥٢٠ — ٥٣٠) وتتميز فسيفساؤه بالحيوية والعناية بالتفاصيل والدقة ، وهذا أسلوب رومانى ، والعهد البيزنطى الذى ظهر فى عهد جستنيان ، وتتميز صوره بالجمود والوجوه الشاخصة ، وعدم إظهار أجزاء من الجسم برغم اهتمام الفنان بالتأثير الزخرفى .

ويظهر الأسلوب الأول فى الصور الموجودة بأعلى الجدران فى الجزء الذى يعلو النوافذ (ش ٧٢) ، (ش ٧٣) ، على حين نرى الأسلوب الثانى فى الإفريز السفلى

---

(١) كان ذلك فى فترة تحريم استخدام الصورة كوسيلة فى الإرشاد الدينى ، أوقد يكون أثر الغزو العثمانى .

(٢) دمرت الكنيسة فى عام ١٩١٧ .

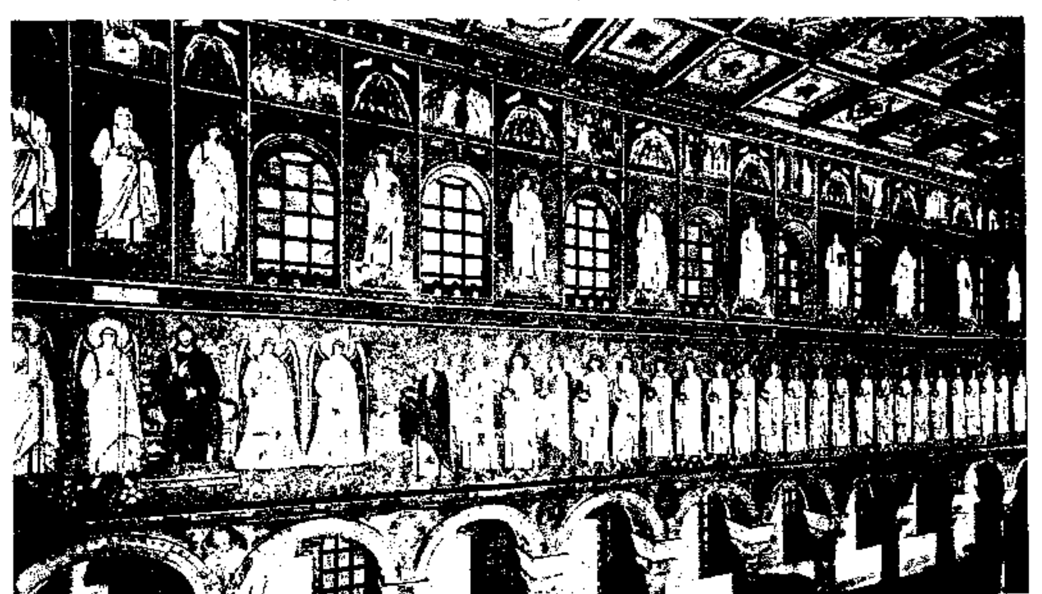
(شكل ٧١) فسيفساء وجدت على جدران
كنيسة القديس ديمترى بسالونيكا





(شكل ٧٣) جزء مفصل من الزخارف العلوية بصور الوشاية بالمسيح

(شكل ٧٢) فسيفساء تغطي جدار كنيسة سان أبولينار نوفو . رافنا



الذى يصور صفًّا من خمس وعشرين قديساً من الشهداء فى زى أبيض يحمل كل منهم تاجاً ، (ش ٧٢) ونرى فى نهاية هذا الموكب المسيح يجلس على العرش بين أربعة ملائكة .

وتغطى زخارف الفسيفساء جميع جدران كنيسة سان فيتال (ش ٧٤) ويظهر الطراز البيزنطى أكثر نقاء فى هذه الكنيسة . ويتضح ذلك فى لوحتين مشهورتين : الأولى تصور الإمبراطور جوستنيان فى ثيابه الرسمية محاطاً برجال الكنيسة وحرسه الخاص ، والثانية تصور الإمبراطورة « تيودورا » فى ثياب فاخرة بين سيدات البلاط [لوحة ملونة رقم ٢] ويلاحظ ظهور الطابع الشرقى فى هذه اللوحات ، فأسلوب التنفيذ تعبيرى أكثر منه مثاليًّا ، حيث يبدى المصور عناية بنقل معالم شخصية الأفراد ، كما أن الألوان المستخدمة قوية . ونلاحظ التأثير الفارسى فى زخارف النسيج الفاخر ، وفى تاج الإمبراطورة المرصع بالجواهر ، وفى أسلوب رسم الأشخاص فى وضع المواجهة .

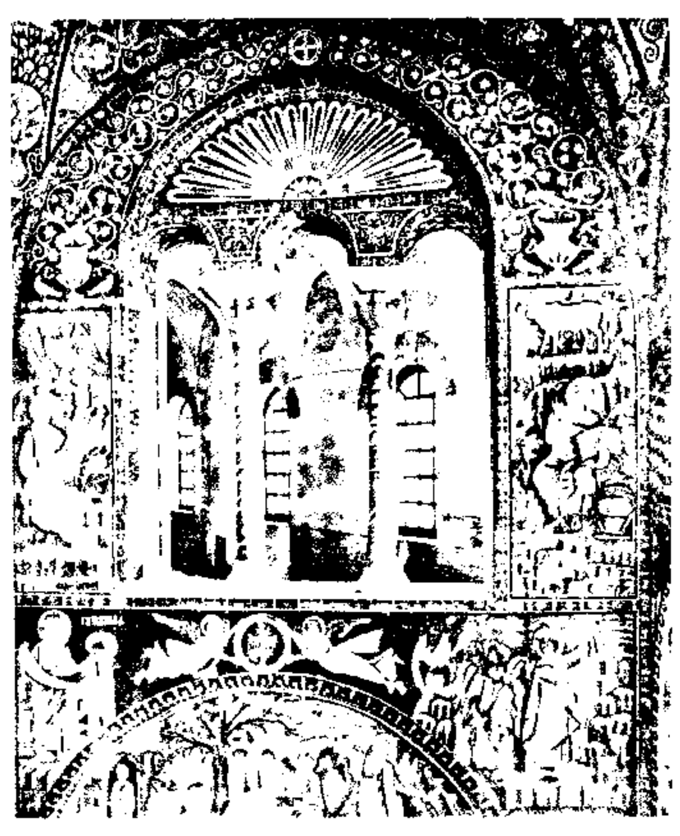
سادت فترة هدوء فى فن التصوير فى الفترة التى حرمت فيها القسطنطينية رسم الأشخاص ، إلا أن فن الفسيفساء يزدهر مرة ثانية منذ أواخر القرن التاسع حيث يقل حجم القطع . وتظهر فى كنيسة سانتا صوفيا بالقسطنطينية زخارف جميلة تعتبر من أرقى أنواع هذا الفن ، وترجع صورها إلى عصور مختلفة [١] وتتضح دقة هذه الصناعة فى لوحة ترجع إلى القرن الثانى عشر (ش ٧٥) . وتوضح لوحات كنيسة شورا (١٣١٥) التى تحولت إلى جامع بالقسطنطينية ازدهار فن الفسيفساء حتى آخر عصور الإمبراطورية البيزنطية .

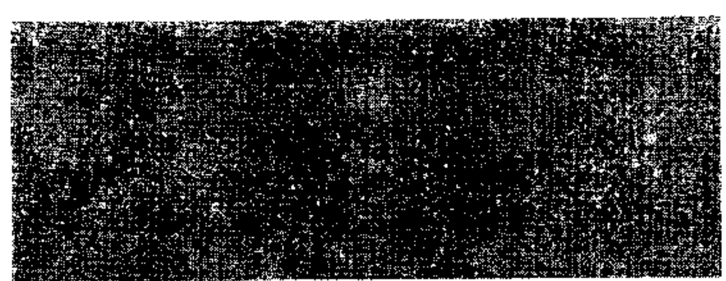
انتشر فن الفسيفساء البيزنطى فى خارج أنحاء الإمبراطورية حيث استقدم الحكام الصناع الإغريق من الإمبراطورية البيزنطية . وتظهر أمثلة لذلك فى كييف بروسيا فى كنيستى القديس ميخائيل (١١٠٨) والقديسة صوفيا (١٠٤٣) ، وفى كنيسة باليرمو بصقلية (١١٤٣) . ويظهر الطراز البيزنطى أيضاً فى نماذج وجدت فى مبانى دنيوية فى باليرمو ترجع إلى عام ١١٧٠ الاولى فى القصر الملكى (ش ٧٦) والثانية فى قصر زيزا .

---

(١) غطى العثمانيون هذه الصورة بطبقة جصية عام ١٤٥٣ وبدئ فى نزعها عام ١٩٣٢ برعاية المعهد البيزنطى بأمريكا . وكشف عن ثمانى لوحات متفرقة من عهود مختلفة .

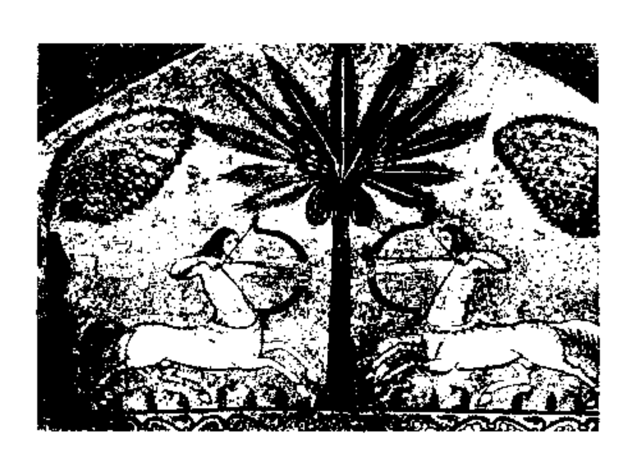
(شكل ٧٤) زخارف من الفسيفساء تغطى الجدار الأيسر من كنيسة سان فيتال رافينا .





(شكل ٧٥) زخارف من الفسيفساء وجدت على جدران سانتا صوفيا .

(شكل ٧٦) زخارف من الفسيفساء وجدت فى القصر الملكى فى باليرمو .



ولا يمكن أن ننتهى من الكلام عن الفسيفساء بدون ذكر فسيفساء كنيسة سان ماركو فى البندقية التى تم تنفيذ زخارفها فى فترات متفرقة .

التصوير الجدارى :

يرتبط فن التصوير الجدارى ارتباطاً وثيقاً بفن الفسيفساء سواء كان ذلك فى الموضوع أم الأسلوب أم الألوان . وغالباً كانت زخارف الفسيفساء ترسم وتلون فى أول الأمر قبل أن يثبت عليها قطع الفسيفساء ، وربما قام بالعمليتين الأشخاص أنفسهم . وكان التصوير يرسم بالألوان على الجدران المغطاة بالجص أو على لوحة . ولم يستخدمه الرومان كثيراً وفضلوا عليه الفسيفساء . وأحسن ما عثر عليه فى الإمبراطورية الرومانية الشرقية . كان فى مصر وسنراه فى الفن القبطى كما وجد فى غزة ، وكان أول ظهور للتصوير الجدارى المسيحى فى مخابئ المسيحيين الأوائل المشيدة تحت سطح الأرض فى الفترة الوثنية ، كما أن الموضوعات كانت بطبيعة الحال تقتصر على القصص والرموز المسيحية كالراعى الصالح (ش ٧٧) . . إلخ وعلى الشخصيات المقدسة كالمسيح والعذراء .

الأيقونة أو اللوحة المصورة :

يعتبر هذا الفن أكثر فنون التصوير التى يظهر بها الطراز البيزنطى . وقد تعددت مراكز تصوير الأيقونات فى العالم الرومانى البيزنطى وتميز كل منها بطراز خاص وكان أسلوبها مستمداً من مصر من مدرسة تصوير الفيوم . ولقد ظهر بطبيعة الحال هذا النوع من الفنون فى العاصمة بالرغم من عدم العثور على أمثلة منه بها . وأجود الأمثلة الأولى كانت من إنتاج مصر (ش ٧٨) إلا أن هذا الفن ازدهر بعد ذلك فى القسطنطينية فى القرن ١٢ (ش ٧٩) كما أن هذا الفن ازدهر بصفة خاصة فى روسيا فى القرن الخامس عشر .

كان هذا النوع من التصوير يرسم بالتمبرا [١] أو مواد مشابهة على أرضية مجهزة

(١) التمبرا وما شابها تطلق على الأعمال التى نفذت بألوان ممتزجة بنسب معينة من صفار البيض (مع بياض البيض أو بدونه) وكانت فى العصور الوسطى (هى الخامة) الأكثر استعمالا على الألواح الخشبية .



(شكل ٧٧) تصوير جدارى عثر عليه فى مخابىء المسيحيين فى روما . القرن الثالث أو الرابع .



(شكل ٧٨) أيقونة تصور القديس بطرس ومن خلفه صور المسيح والعذراء والقديس أسطفان القرن السابع . حالياً دير سان كاترين بسيناء



(شكل ٧٩) أيقونة عرفت باسم « عذراء فلاديمير » رسمت فى القسطنطينية فى حوالى ١١٣٠ حالياً بمتحف ترشيا كوف بموسكو

على القماش الذى كان يلصق بدوره على لوحة خشبية . وفكرة الرسم على القماش مستمدة من اللفائف التى تحيط بالمومياء فى صور الفيوم . وكان هذا النوع من التصوير يرسم فى أول الأمر على مساحات كبيرة فى الكنيسة ، ثم بدئ فى عمل أيقونات صغيرة توضع فى المنزل فى فترة تحريم التصوير ، وربما تم رسم كثير من الأيقونات الموجودة فى المتاحف فى تلك الفترة . وأشهر الأيقونات البيزنطية وجدت بمتحفى بنا كى والبيزنطى بأثينا . ومتحفى بوشكن وترتياكوف بموسكو . كما أن أكبر مجموعة من هذه الأيقونات توجد فى دير سان كاترين بسيناء .

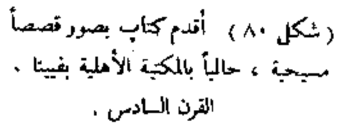
تصوير المخطوطات :

من المرجح أن الموضوعات الدينية التى وجدت فى صور فسيفساء الكنائس البيزنطية كان أهم مصادرها صور الكتب الدينية التى كتبت فى أوائل العهود المسيحية . ولهذه المخطوطات المصورة الأولى أهمية كبيرة فى دراسة تطور فن التصوير البيزنطى وذلك لأنها كانت من الفنون التى حفظت لدينا أكثر من فن التصوير الجدارى أو الرسم على الألواح .

وكانت المخطوطات الأولى فى العالم الإغريقى الرومانى تنقسم إلى نوعين : اللفافة المطوية ومصدرها مصر ومنها انتقلت إلى العالم الكلاسيكى ، والكتاب المجلد الذى حل تدريجيًا محل النوع الأول من القرن الأول حتى القرن الرابع . وكانت صور المخطوطات الأولى سواء فى المخطوطات المسيحية أو اليهودية أو الوثنية يغلب على أسلوبها طراز التصوير الهيلينستى الرومانى الذى عرف فى الإسكندرية وفى بومبى .

ويظهر فى صور مخطوطات العصر البيزنطى المسيحية والمدنية أسلوبان مختلفان متعارضان تداخلا واندمجا فى آخر الأمر : الأول أسلوب تصويرى عرف فى مصر وفى العالم الكلاسيكى،ونجده فى أقدم أنجيل مسيحى مصور من أوائل القرن السادس فى المكتبة الأهلية بفيينا (ش ٨٠) ، وفى مخطوط « ديوسكريدس » الدنيوى الذى يبحث فى « خواص الطبيعة » ومؤرخ عام ٥٢٤، أيضاً بالمكتبة نفسها . والثانى أسلوب متأثر بالتقاليد الشرقية الآسيوية السورية التى تهتم بالزخارف الفنية والأسلوب الواقعى ،





(شكل ٨٠) أقدم كتاب بصور قصصاً مسيحية ، حالياً بالمكتبة الأهلية بفيينا ، القرن السادس .





(شكل ٨١) مخطوط « روسانيس » وبه صورة للمسيح أمام الحاكم بلات . مكتبة روسانو بإيطاليا . القرن السادس .

(شكل ٨٢) مخطوط « كوزموس أنديكوبليوستوس » يصور القديس بولس فى طريقه إلى دمشق . متحف الفاتيكان بروما ، القرن التاسع



(شكل ٨٣) مخطوط « جوشيا » يصوره مع الجاسوسين بمتحف الفاتيكان بروما . القرن العاشر .

ونجده فى مخطوط « روسانيس » الذى يرجع إلى القرن السادس وموجود بمكتبة روسانو (ش ٨١) . ولقد تداخلت هذه التأثيرات المختلفة فى صور المخطوط الواحد فى بعض الأحيان مما يدل على اشتراك أكثر من فنان فى تصويرها .

تقل المخطوطات المصورة فى فترة تحريم التصوير التى انتهيت عام ٨٤٢ . وتظهر من العصر الذهبي الثانى للفن البيزنطى مخطوطات تتميز بالدقة ، كما نلاحظ فى صورها الجمع بين التأثيرات السابقة . فمن الكتب الدنيوية المشهورة التى يظهر فيها تأثيرات سورية آسيوية ، مخطوط يصف رحلات شخص يدعى كوزماس أنديكو بليوستوس يرجع إلى القرن التاسع وموجود حاليًّا بمتحف الفاتيكان (ش ٨٢) . كما نجد بمخطوط جوشيا الذى يرجع إلى القرن العاشر والموجود بمتحف الفاتيكان (ش ٨٣) التأثر بفنون الماضى الكلاسيكية التى شجع على الرجوع إليها الإمبراطور قسطنطين .

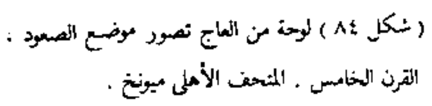
الفنون الصغيرة :

العاج :

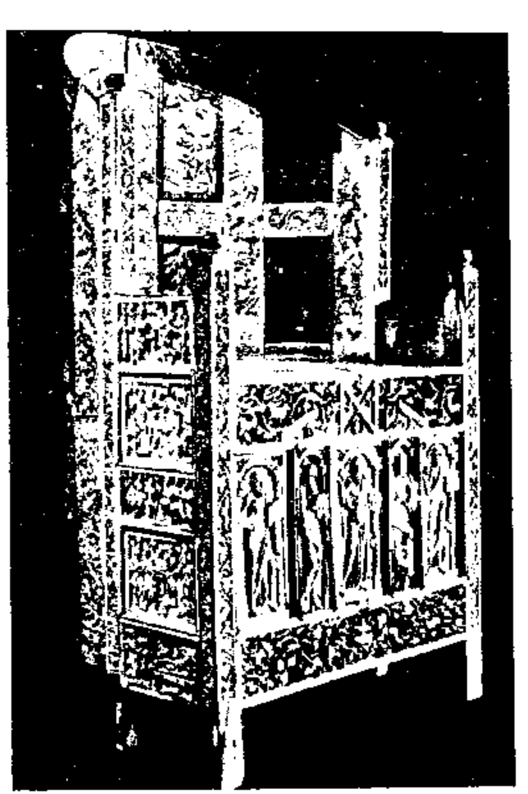
ازدهرت صناعة المشغولات العاجية فى بعض مراكز الإمبراطورية (القسطنطينية ، الإسكندرية ، أنطاكية) واستخدم بكثرة فى صناعة الصناديق والعلب والأثاث ، وفى عمل لوحات دينية توضع فى الكنائس تتكون من جزئين أو ثلاثة أجزاء أطلق عليها الغربيون Dipthch ، Triptych . ومن أشهر النماذج التى تدل على الدقة التى وصل إليها فن نحت العاج البيزنطى ، لوحة تصور الصعود ترجع إلى القرن الخامس موجودة بمتحف مدينة ميونخ (ش ٨٤) .

إلا أن أحسن الأمثلة التى تدل على مهارة الصانع ،هو كرسى أسقف رافينا الذى يرجع تاريخ صنعه إلى الفترة ٥٤٥ — ٥٥٦ (ش ٨٥) . وتعتبر هذه القطعة من أدق أمثلة النحت القليل البروز فى العصر البيزنطى . ويظهر فى اللوحات (ش ٨٥ا) التى يتكون منها الكرسى زخارف آدمية وحيوانية ونباتية . ولقد ثار جدل حول المركز الذى

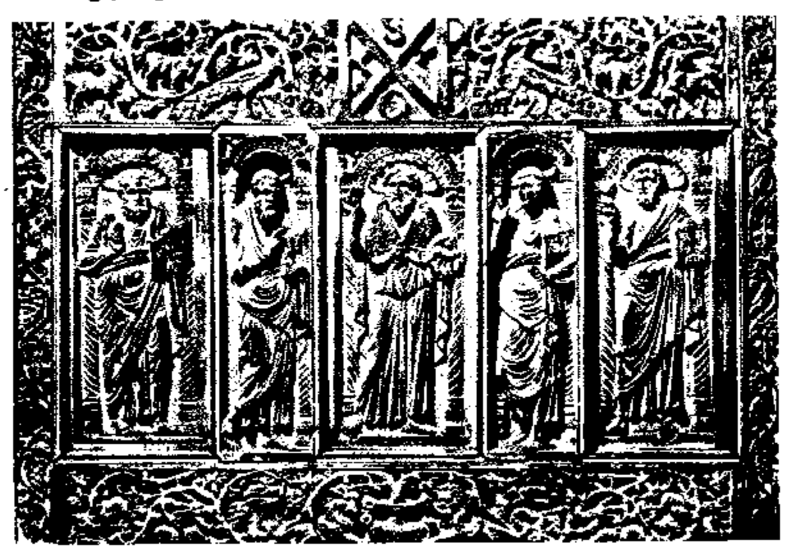




(شكل ٨٤) لوحة من العاج تصور موضع الصعود .
القرن الخامس . المتحف الأهلى ميونخ .



(شكل ٨٥ ، ٨٥أ) كرسي الأسقف رافينا ماكيسميناس أوائل القرن السادس . المتحف الأهلى برافينا .
ونلاحظ النقوش الموجودة على اللوحات الأمامية من الكرسي



ينسب إليه صناعة الكرسى فنسب أولاً إلى الإسكندرية ثم إلى أنطاكية ويعتقد بعض الباحثين أن الألواح التى يتكون منها الكرسى قد نقشت قبل عمله بنصف قرن .

المعادن :

سيطرت الموضوعات الدينية بطبيعة الحال على الزخارف المنقوشة على المعادن فى العصر البيزنطى (ش٨٦) وتميزت زخارف الكؤوس والأوانى والشمعدانات والصلبان ببروز خفيف على السطح . وأقبل البيزنطيون على زخرفة المعادن بطبقة من الألوان المزججة التى عرفت بصناعة المينا . وكانت الألوان المستخدمة قبل القرن التاسع داكنة قليلة ، إلا أن هذه الألوان تغيرت بعد القرن العاشر (ش٨٧) . وكان هذا الفن معروفاً فى الشرق الأوسط عندما تكونت الدولة البيزنطية ووجدت نماذج بديعة منه فى مصر وإيران . واستمد البيزنطيون طريقة هذه الصناعة من الساسانيين .

المنسوجات :

كانت منسوجات العصور البيزنطية الأولى تتكون من الكتان المزخرف بالخيوط الصوفية ويرجع الفضل فى اكتشاف سر إنتاج الحرير الذى كانت تحتفظ به الصين إلى البيزنطيين الذين عرفوه فى عام ٥٥٢[1] ، وكان الحرير الذى يستخدم فى الإمبراطورية الرومانية وبلاد الإغريق وفارس يستورد قبل ذلك من الصين .

وبعد معرفة سر إنتاج الحرير أقام الإمبراطور جستنيان مصنعاً للمنساجات الحريرية فى عام ٥٥٤ فى العاصمة القسطنطينية . وانفردت مصانع العاصمة باستخدام اللون القرمزى الإمبراطورى فلم يظهر هذا اللون فى المراكز الأخرى (سوريا – مصر) . وقد استمر هذان المركزان يزودان الإمبراطورية البيزنطية بالمنسوجات بعد فتح العرب لها .

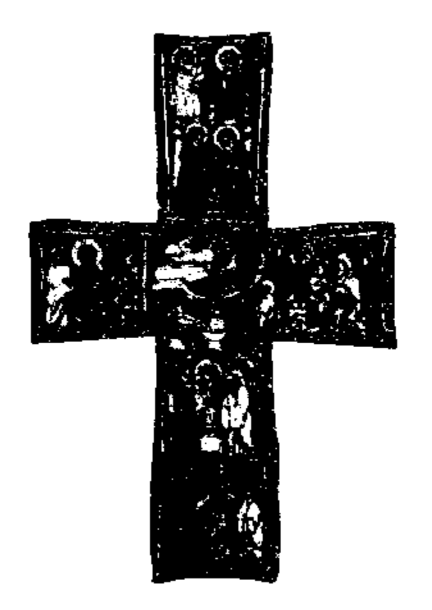
ولقد لعبت فارس دوراً كبيراً فى مد المناسج البيزنطية بزخارف ساسانية وذلك عن

---

(١) ذكر المؤرخون أن أسرار صناعة الحرير نقلها راهبان إلى الإمبراطور جستينيان .

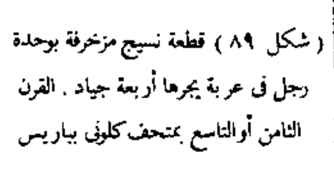
(شكل ٨٦) طبق من الفضة مزخرف بقصة « داود والأسد »
القرن السادس . بمتحف المتروبوليتان - نيويورك .





(شكل ٨٧) صليب مزخرف بالمينا ، يصور
مناظر دينية ، القرن ٨ - ٩ متحف الفاتيكان

(شكل ٨٨) قطعة نسيج مزخرفة بموضوع ديني مكرر في دوائر بكنيسة بروما . القرن السابع أو الثامن .

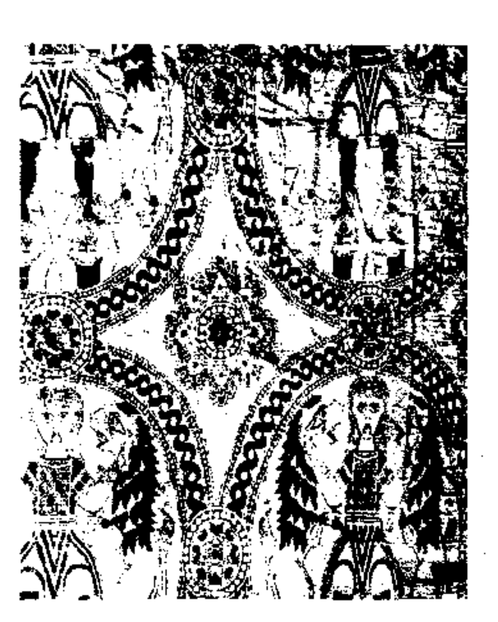


(شكل ٨٩) قطعة نسيج مزخرفة بوحدة رجل في عربة يجرها أربعة جياد . القرن الثامن أو التاسع بمتحف كلوني بباريس



(شكل ٩١) قطعة نسيج حريرية مزخرفة بوحدة حيوان السمرج ، متحف فيكتوريا والبرت

(شكل ٩٠) قطعة نسيج حريرية مزخرفة بوحدة رجل بين أسدين كتدرائية سانس .



طريق المنسوجات الحريرية التي كانت تصدر إلى بيزنطية كذلك ظهرت فى زخارف المنسوجات البيزنطية موضوعات مسيحية وفارسية . وتظهر الموضوعات المسيحية(الوحى – الصعود – ولادة المسيح) فى قطعة حريرية بمتحف كنيسة الفاتيكان بروما (ش ٨٨) وتظهر الوحدات مكررة داخل جامات مستديرة ألوانها أخضر وبنى وذهبي وأبيض على خلفية ذهبية .

وبالرغم من أن هذه القطعة نسبت أحياناً إلى مناهج الإسكندرية ، إلا أن موضوعها الذى تميز به الفن البيزنطى يرجع نسبتها إلى المناسج الإمبراطورية فى القسطنطينية . ويظهر التأثير الشرقى فى زخارف العرش الذى تجلس عليه العذراء . وتنسب فكرة وضع الصورة فى إطار أحياناً إلى الفن الهيلنستى وأحياناً إلى الفن الفارسى الساسانى .

وقد انتشرت الزخارف الموضوعة فى دوائر فى منسوجات العصر البيزنطى ، كما ظهرت داخل هذه الدوائر عناصر زخرفية متعددة تسربت من الشرق (فارس – سوريا – مصر) إلى القسطنطينية ، ويتضح ذلك فى القطعة الحريرية الموجودة فى متحف كلونى بباريس (١) والتى ترجع إلى القرن ٨ – ٩ (ش ٨٩) .

كما نجد فى القطعة الموجودة فى كتدرائية سانس المزخرفة بوحدة رجل بين أسدين (ش ٩٠) أن الفنان المسيحى قد حول الوحدة البابلية القديمة إلى موضوع دينى يصور النبى دانيال والأسود . ونلاحظ أن القطعة المزخرفة بوحدة مستمدة من حيوان « السمرج » الخرافى الموجودة فى متحف فيكتوريا والبرت (ش ٩١) هى وحدة ساسانية وجدت فى زخارف زى الملك خسرو المنقوشة على صخور تاكى بستان بإيران (ش ١٦٢) .

---

(١) توجد قطعة أخرى مماثلة فى كتدرائية آخن بألمانيا .

الفصل الثانى

مصر

الفن القبطى

تمهيد تاريخى :

صارت مصر ولاية رومانية بعد انتصار اكتافيوس على أنطونيو عام ٣٠ ق.م. وعند ظهور المسيحية فى عهد الإمبراطور نيرون ، بدأ المصريون فى اعتناق الدين الجديد خفية ، وانتشرت المسيحية فى الإسكندرية فى القرن الثانى الميلادى ، إلا أن المدينة أصابها تدمير عندما أمر الإمبراطور تراجان بكبح ثورة اليهود . ولقد نهبت المدينة وخربت مرة ثانية فى عهد الإمبراطور كركالا (٢١١ - ٢١٧ م) الذى أراد الانتقام من المؤمنين بالدين الجديد ، وعذب المسيحيون مرة ثانية فى عهد الإمبراطور دسيوس .

استولت زينوبيا ملكة تدمر على العاصمة الإسكندرية فى عام ٢٦٩ ، إلا أن ماركوس أوريليوس (٢٧٠ - ٢٧٥) تمكن من طردها عام ٢٧٣ وانتقم من المدينة التى لم تقاومها. وزاد الاضطهاد والتعذيب فى فترة حكم الإمبراطور دقلديانوس ، مما جعل الأقباط يبدأون تقويمهم المسيحى من سنة ٢٨٤م وهو العام الذى اعتلى فيه الإمبراطور عرش الإمبراطورية .

وبعد الاعتراف بالكنيسة المسيحية فى الفترة ٣١٢ - ٣١٣م ، احتلت الإسكندرية مركزاً مرموقاً فى مجلس الكنائس . كما مارس المصريون الدين جهاراً بعد أن اعتنق الإمبراطور قسطنطين المسيحية . وقد اعتبر الدين المسيحى دين الدولة الرسمى فى عهد الإمبراطور ثيودوسيوس الأول ، وصارت مصر بعد وفاته وتقسيم الإمبراطورية بين أولاده تابعة للإمبراطورية الرومانية الشرقية .

وأغلقت المراكز الوثنية التى مازالت باقية فى عهد جستنيان ، وبعد أن إنفصلت الكنيسة الغربية عن كنيسة القسطنطينية فى القرن الخامس الميلادى كان لمصر رأى

فى تعيين البطارقة،فلما رفضت تعيين ثيود وسيوس بطريقاً لها أمرت الإمبراطورة تيودورا بحرق جزء من الإسكندرية عقاباً لأهلها.وصارت مصر القديمة بعد ذلك أهم مراكز لمصر المسيحية .

وكان من نتيجة الحروب القائمة بين الدولة البيزنطية والدولة الساسانية الفارسية أن استولى الساسانيون على مصر فى عام ٦١٩م إلا أن هرقل تمكن من طردهم منها بعد فترة وجيزة ، وتخلل فترة حكمه صراع دينى بينه وبين رجال الكنيسة القبطية مما دفع المصريين إلى الترحيب بعمرو بن العاص عندما فتح مصر فى عام ٦٤١م .

عندما انتشرت المسيحية فى أنحاء الإمبراطورية الرومانية ، ظهرت طرز فنية مسيحية محلية معدلة بعض الشئ عن الفن البيزنطى الذى كان يسود الشرق الأوسط . ومن أهم هذه الطرز المسيحية أسلوب فنى نشأ فى مصر وتأثر بالتقاليد الشرقية والمحلية وانعزل عن الحضارة الهيلينستية التى كان يمثلها الحاكم المستعمر ، ويعرف هذا الطراز بالفن القبطى .

وبمرور الزمن ، بدأ الفن البيزنطى فى مصر يأخذ سمات جديدة نتيجة لتأثره بالعناصر المحلية . وقد تطور الفن القبطى وابتعد عن نفوذ فن الحاكم المستعمر ، وكون لنفسه طرازا مسيحيًا محليًا نابعاً من صميم الشعب القبطى .

والفن القبطى هو الفن الأول فى الشرق الأوسط الذى كان من إنتاج الشعب ولم توجهه الدولة . ولقد أنتجه مسيحيو مصر منذ الفترة التى اعترف فيها بالكنيسة عام ٣١٣م ، واستمر لفترة بعد الفتح العربى .

كان الفن القبطى بطبيعة الحال يدين فى مراحله الأولى للفن الرومانى الهيلينستى الذى انتشر فى الشرق الأوسط وشمال أفريقيا فى أعقاب الفن المقدونى الهيلينستى . وكان أهم مراكز هذا الفن مدينة الإسكندرية التى كانت تحتوى على جالية كبيرة إغريقية ، كما كانت على صلة بالمراكز الهيلينستية الواقعة على شاطئ البحر الأبيض المتوسط .

أما الفن المسيحى المحلى فكانت تظهر آثاره فى المراكز الدينية الموجودة فى مصر الوسطى والعليا . وهناك أمثلة عديدة لذلك فى أهناسيا وفى أديرة سقارة وباويت

وفى كنائس دندرة وفى مناسك سوهاج .

وكلمة قبط التى أطلقت على مسيحيى مصر ، هى كلمة عربية اشتقت من اسم « مصر » باللغة الإغريقية « ايجيبتوس » . وصارت كلمة « جبت » أو قبط منذ الفتح العربى اسما مميزا لمسيحيى مصر بدلا من القطر.

وكانت اللغة القبطية المتداولة بين مسيحيى مصر تتكون حروفها من خليط من الحروف الإغريقية وبعض أحرف اللغة الديموطيقية [١] . واستمر استخدام هذه اللغة فى مصر لفترة بعد الفتح العربى .

وينقسم الفن القبطى تبعا للعناصر الزخرفية التى كونته إلى ثلاثة أقسام :

طراز رومانى متأثر بالفن الهيلينستى وموضوعاته الوثنية المستمدة من الأساطير الإغريقية الرومانية ، ويتميز بالحركة وتقليد الطبيعة . وتنحصر اثاره فى القرنين الرابع والخامس .

ثم طراز مسيحى يعرف بالمرحلة الانتقالية ، وذلك لاستمرار ظهور عناصر من الموضوعات الوثنية السابقة جنبا إلى جنب الرموز المسيحية . وتنحصر آثاره فى القرنين الخامس والسادس .

أما الطراز القبطى الذى يعبر عن الفن المسيحى القبطى الشعبى ، فنلاحظ خلو زخارفه من تأثير الأسلوب الهيلينستى الذى يقلد الطبيعة ، كما تسود فيه عناصر الرموز والشخصيات المسيحية ويرجع آثاره إلى القرنين السادس والسابع .

ومن المعروف أن نشاط الفن القبطى فى الكنائس والأديرة لم يتوقف بعد الفتح الإسلامى لمصر.

وتسبق هذه المراحل فترة تعرف باسم أهناس الأول عثر فيها على منحوتات وثنية ذات أصول إغريقية رومانية وترجع آثارها إلى أواخر القرن الثالث أحيانا وتعرف بالفترة قبل الفن القبطى .

ولقد عثر على هذه الآثار العالم إدوارد نافيل فى نهاية القرن التاسع عشر فى مدينة

(١) كتابة وجدت فى أواخر العهود المصرية القديمة

أهناسيا ، كما وجد بالمدينة آثار كنيسة ربما كانت معاصرة للأعمال الوثنية .

ومن الجدير بالذكر وجود عناصر أخرى فى أعمال الفن القبطى ، فمن الفن المصرى القديم استمر ظهور الآلهة المصرية مثل إيزيس ، حورس ، ومفتاح الحياة ومناظر الصيد فى النيل . . إلخ .

كما نلاحظ أن الفن القبطى قد تأثر فى مراحله المبكرة بالفن التدمرى السورى الذى انتقل إلى الإسكندرية مع غزو الملكة زينوبيا للعاصمة . كما تظهر فى الفن القبطى عناصر كثيرة من الفن الساسانى انتقلت إليه من فترة احتلال الساسان لمصر بعد طرد الرومان من القطر المصرى .

العمارة :

يميل كثير من الباحثين إلى الاعتقاد بوجود كنائس فى الإسكندرية فى أواخر القرن الأول الميلادى ، حيث تذكر بعض المصادر أن القديس مرقص دفن فى كنيسة بالإسكندرية بعد إعدامه فى عام ٩٨ م . إلا أن هذه الكنائس الأولى التى أقيمت فى فترة التسامح الدينى فى العصر الرومانى إزيلت عن آخرها فى عهد الإمبراطور دقلد يانوس .

وعندما ظهر نظام الرهبنة فى مصر فى نهاية القرن الرابع وشيد عدد من الأديرة فى جهات متعددة من القطر وإستقر فيها الرهبان المتصوفين .

وكان القديس بولس أول من بدأ الرهبنة فى مصر وكان يقيم شعائر الدين فى أحد كهوف ساحل البحر الأحمر ، كما كان القديس أنطون أول من نظم الرهبنة فى مصر بعد أن عثر على القديس بولس فى كهفه .

انتشرت الأديرة فى أماكن منعزلة بالقرب من المدن ، أو فى الصحارى والواحات ، أو على ضفاف النيل ولعزلتها كانت هذه الأديرة تحاط عادة بسور محصن ، كما يلحق بها كنيسة للعبادة .

ومن الأديرة المشهورة الدير المحرق ودير أبوفانا الواقعان فى الصحراء بالقرب من

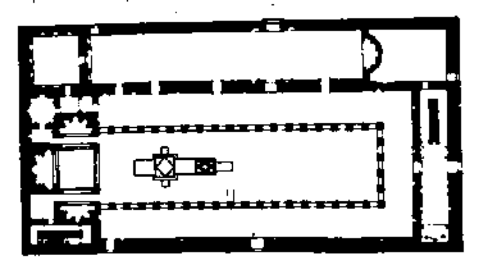
مدينة أسيوط ، ثم دير الريان ودير الأنبا مقار فى صحراء وادى النطرون . كما يقع دير القديس أنطون فى صحراء البحر الأحمر .

وذهب بعض الرهبان إلى صحراء سينا ، وشيدوا هناك دير وكنيسة ، وفى القرن السادس شيد الامبراطور جستنيان حصنا يحيط بالدير والكنيسة يعرف حاليا باسم دير سانت كاترين [١] .

ولقد بقيت كنائس الأديرة فى حالة جيدة لعناية الرهبان ولوجود أسوار منيعة تحيط بها ، بعكس بعض الكنائس التى أقيمت فى المدن فلم تجد العناية الكافية فاندثرت ولم يبق منها إلا القليل .

نشطت حركة تشييد الأديرة والكنائس فى أنحاء القطر بعد أن صار الدين المسيحى دين الدولة الرسمى فى مصر . فشيد فى عهد الإمبراطور أركاديوس كنيسة للقديس مينا [٢] فى حوالى عام ٣٥٠م فى صحراء مريوط بالقرب من الإسكندرية . كما شيد البطريق ثيوفيلس كنيسة للقديس حنا فى مكان معبد الإله سيرابيوم الذى أزاله . وكان تصميم هذه الكنائس على طراز الكنائس البازيليكية .

ومن أشهر كنائس الأديرة كنيسة الدير الأبيض التى شيدها الراهب شنودة على الطراز البازيليكى (رسم و) . ويرجع تاريخ إقامة الدير الأبيض والدير الأحمر المشيدان بالقرب من مدينة سوهاج إلى حوالى عام ٤٤٠ م .



(رسم و) يضم كنيسة الدير الأبيض ، سوهاج منقول عن « مونلريه دى فيارد »

---

(١) ذكر أن جثة القديسة كاترين كانت بالإسكندرية إلا إنها انتقلت فجأة إلى ذلك المكان .

(٢) كان القديس مينا ضابطاً بالجيش الرومانى واستشهد فى عام ٢٩٦ لإيمانه بالدين المسيحى . وعندما نقل ليدفن فى الإسكندرية برك الجمل الذى يحمل النعش فى مكان بصحراء مريوط فدفن هناك . ولما ظهرت بركته فى شفاء الأغنام التى كانت مريضة وشربت من العين الموجودة بالقرب من مدفنه ، بنى المصريون له كنيسة فى هذا الموقع .

كذلك شيدت كنائس فى دير الأنبا أرميا بسقارة وفى دير أبا أبولو ببلدة باويط . ويرجع تاريخ إقامتها إلى أواخر القرن الخامس أو أوائل القرن السادس . كما وجدت كنائس ملحقة بدير الأنبا سمعان بالقرب من مدينة أسوان ودير أبو حنس بمحافظة أسيوط .

ولقد شيد الأقباط عددا من الكنائس فى منطقة مصر القديمة بعد ذلك ، ويتبع تخطيط بعضها الشكل البازيليكى المستطيل بينما يتبع تخطيط البعض الآخر الشكل المربع البيزنطى الذى تعلوه القباب والأقبية نذكر منها كنيسة القديسان « سرجيوس وباكوس » أبو سرجة ، وتقع هذه الكنيسة حاليا وسط حصن بابليون .

تنسب هذه الكنيسة إلى قديسين من بلدة الرصافة بسوريا استشهدا فى عام ٢٩٦ م فى عهد الإمبراطور مكسيميانوس لاعتناقهما الدين المسيحى ، وتشتهر بقصة التجاء العذراء بالمغارة القريبة منها بعد هربها إلى مصر خوفا على ابنها من « هيرودوس » .

يتبع تصميم هذه الكنيسة الطراز البازيليكى ذى الثلاثة أروقة ويفصل الأروقة صفين من الأعمدة ذات تيجان كورنثية . ويوجد بالواجهة التى تقع فى الجهة الغربية ثلاثة أبواب .

ولقد جددت هذه الكنيسة فى عهد هارون الرشيد بعد أن أصابتها النيران التى إندلعت فى الفسطاط فى أواخر العصر الأموى ، كما جددت مرة ثانية فى عهد العزيز بالله الفاطمى .

ويرجع تاريخ الكنيسة المعلقة إلى القرن الخامس . ولقد أقيمت هذه الكنيسة فوق برج من برجى إحدى بوابات قصر بابلون الرومانى [١] . وكان هذا الحصن مشيدا فى عهد الإمبراطور أغسطس وأعيد بناؤه فى عهد الإمبراطور تراجان ، ووسع فى عصر الإمبراطور أركاديوس وعرف باسم قصر الشمعة أو قصر بابلون .

---

(١) يعتقد بعض الباحثين أنه ليس معقولا أن تشيد الكنائس داخل الحصن الرومانى فى فترة حكم الرومان ، وأن تاريخ تشيد هذه الكنائس يرجع إلى العصر الاسلامى .

يتبع تخطيط هذه الكنيسة التصميم البازيلكى ، إلا أن بها أربعة أروقة تفصلها ثلاثة صفوف من البواكى تحملها أعمدة كورنثية .

ولقد جدددت الكنيسة فى العصر الفاطمى فى عهود الخلفاء المعز لدين الله والظاهر لإعزاز الله .

ويطلق أحيانا اسم الدامشيرية على كنيسة العذراء نسبة إلى أحد سكان بلدة دمشير الذى قام بترميمها فى القرن السابع عشر .

أما كنيسة القديسة بربارة الموجودة فى نفس الموقع فترجع إلى حوالى عام ٦٨٤ . ولقد أقيمت هذه الكنيسة فى أول الأمر تكريما للقديس حنا ، إلا أن اسمها تغير بعد أن نقلت إليها رفات القديسة بربارة .

وتحتوى هذه الكنائس القبطية على مجموعات رائعة من الأعمال الفنية الحجرية والخشبية ، كما حفلت بعدد من المباخر والأوانى المعدنية المتقنة الصنع . كذلك وجد بها مجموعة من الستائر والمفارش والسجاد تدل على أصالة هذا النوع من الفنون فى مصر منذ العهود القديمة .

النحت على الحجر

كانت المنحوتات الأولى التى ترجع إلى القرنين الثانى والثالث متأثرة إما بالفن الرومانى مثل تمثال الكاهن الذى عثر عليه فى كنيسة القديس مينا بمريوط . أو بالفن التدمرى الذى يهتم بنقش شواهد القبور بصورة للمتوفى . ولقد عثر على أمثلة لذلك فى مدينتى قفط وكوم الرجيب فى الوجه القبلى .

كما استمر ظهور بعض الموضوعات المصرية مثل النقش شديد البروز الذى عثر عليه فى باويط ، يصور الإله المصرى « حورس » فى هيئة فارس بالزى الرومانى يصوب رمحه فى جسد الإله الشرير « ست » .

ومن الملاحظ أن الفنان القبطى بدأ يضعف اهتمامه بالنحت الكامل منذ القرن الرابع . واتجه إلى النحت البارز الذى كان شديد البروز فى أول الأمر ثم تحول إلى

أسلوب مبسط يتميز بالتسطيح .

ومن الموضوعات المسيحية المبكرة المنقوشة على جدران المبانى الدينية ، نقش بارز وجد على جدران كنيسة القديس مينا (ش ٩٢) ، يصوره مرتدياً ثيابا رومانية ، رافعا يديه فى وضع ابتهال إلى الله . ويظهر فى هذا العمل تأثر المثال بالفن الكلاسيكى الذى كان فى آخر مراحله فى الإسكندرية .

وتزخر الفترة الرومانية المتأثرة بالفن الهيلينستى بالموضوعات الوثنية المستمدة من الأساطير الإغريقية مثل قصة ليدا والبجع [١] ، أوربا والثور [٢] ، دافنى وأبوللو [٣] . أو من شخصيات الآلهة الإغريقية مثل أفروديت ، زيوس ، إيروس ، هرقل وإله الخمر ديوتيسس . أو من الشخصيات التى ترمز إلى المدن والأنهر مثل الإسكندرية والنيل .

وتزخر المنحوتات التى وجدت بمدينة أهناسيا بموضوعات تصور الآلهة الإغريقية ، ويوضح ذلك جدار منقوش بصورة أفروديت خارجة من صدفة مفتوحة فى الماء (ش ٩٣) ونلاحظ فى هذا النقش أسلوب هيلينستى رقيق به حركة تميزت بها الآثار التى عثر عليها فى أهناسيا .

كذلك عثر فى مدينة أهناسيا أقدم المراكز القبطية على حينيتن كانا فى الغالب فى كنيسة . ويدل أسلوب نحت كل من الموضوعات الوثنية والمسيحية على أن كلاهما فى الغالب من عمل فنان واحد أو ربما من إنتاج مركز واحد .

وتظهر الرموز المسيحية جنبا إلى جنب العناصر الوثنية فى مجموعة من الحشوات ترجع إلى منتصف القرن الخامس . فنرى فى جدار عثر عليه فى سوهاج (ش ٩٤)

---

(١) ذكر فى الأساطير الإغريقية أن زيوس كبير الآلهة الإغريقية كان يتردد على ليدا زوجة تينداروس ملك إسبرطة متخفياً على هيئة بجعة .

(٢) ذكر فى الأساطير أن زيوس أتى إلى أوروبا الجميلة على هيئة ثور أبيض فلما ركبع لها وامتطت ظهره طار بها إلى بلاد كريت .

(٣) عندما طارد أبوللو الجميلة دافنى وكاد يمسك بها ، استغاثت بالآلهة التى حولتها إلى شجرة .



(شكل ٩٢) نحت بارز على الحجر يصور القديس مينا عثر عليه فى كنيسة القديس مينا بالقرب من الإسكندرية حالياً بالمتحف الإغريقى الرومانى . الإسكندرية



(شكل ٩٣) حشوة من الحجر الجيرى من مدينة أهناسيا بالوجه القبلى وتظهر به زخارف بارزة تصور الآلهة أفروديت خارجة من صدفة . القرن الخامس

نقش بارز يصور طفلان عاريان مقتبسان من الإله إيروس [١] يحملان إكليلا من الغار . ويحيط بالمجموعة تفريعات من نبات الأكنتس .

ونلاحظ فى زخارف هذه المجموعة أن الوحدات الآدمية جامدة قليلة الحركة . ويتفق الباحثون على أن الطراز الناعم يرجع إلى حوالى عام ٤٠٠ بينما ترجع المجموعة ذات الأسلوب الجامد إلى منتصف القرن الخامس . ومن المنحوتات المسيحية المبكرة عقد يصور المسيح حاملا الصليب يمنح البركة (ش ٩٥) ، ومن المرجح أن هذا العقد يرجع إلى القرن الرابع .

وتمتزج الوحدات ذات الأصول المختلفة أحيانا فى عمل فنى واحد ، فتظهر علامة عنخ رمز الحياة عند قدماء المصريين (ش ٩٦) جنباً إلى وحدة الصليب وتفريعات نبات الأكنتس . وعلامة عنخ من العناصر القليلة التى اقتبسها المسيحيون المصريون من الفن المصرى القديم . وللتشابه الموجود بين عنخ وبين الصليب نجد أن



(شكل ٩٥) حنية بها نقش يصور المسيح يمنح البركة
من مجموعة مريت غالى القاهرة

(١) إيروس إله الحب عند الإغريق ، عرف باسم كيوبيد عند الرومان ، ويظهر فى الفن على هيئة طفل له جناحان .



(شكل ٩٤) حشوة من الحجر الجيرى عثر عليها فى مدينة سوهاج ، ويظهر بها طفلان يحملان إكليلاً من الغار يتوسطه صليب . النصف الثانى من القرن الخامس . المتحف القبطى . القاهرة



(شكل ٩٦) نحت بارز عثر عليه فى كنيسة مقامة فى فناء معبد دندرة البطلمى . أواخر القرن الخامس ويلاحظ الصليب وبجواره علامة عنخ

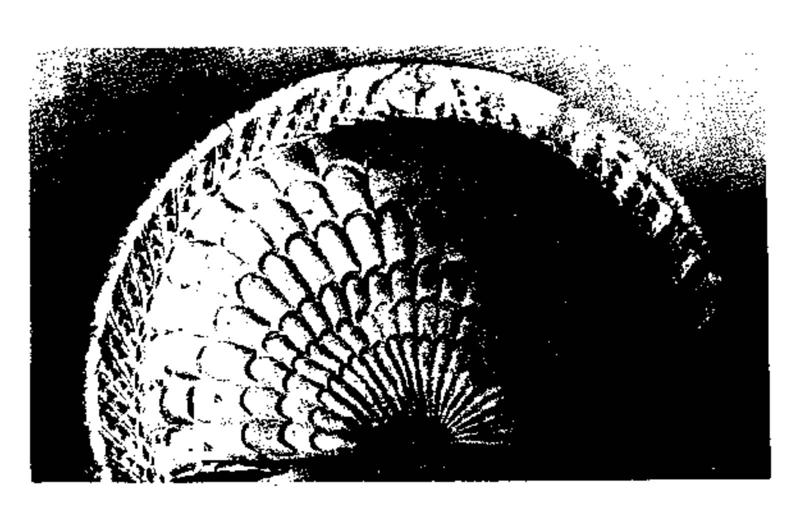


شكل (٩٧) أفريز من الحجر الجيرى به زخارف مكونة من عناقيد العنب ويتوسطها الصليب عثر عليها فى دير القديس « أبا أبولو » بمدينة باويت بالوجه القبلى . النصف الثانى من القرن السادس ، بمتحف اللوفر .

الفنان القبطى جمع أحياناً بينهما وتعكس الألواح الحجرية التى عثر عليها فى باويط وسقارة وبعض مراكز أخرى أسلوب البلاط البيزنطى . ويظهر هذا الأسلوب فى لوحة ترجع إلى القرن السادس منقوشة بوحدات الصليب موضوعة فى دوائر تكونت من تفريعات نبات العنب وثماره (ش ٩٧) . وتظهر هذه الزخارف المتكررة فى نظام هندسى جميل .

وأصبح التحوير من الأشكال الطبيعية تقليدا مفضلا عند الفنان القبطى فى القرن السادس . ويوضح ذلك نقش على عقد من الحجر لتصميم مستمد من شكل الصدفة المفتوحة (ش ٩٨) ونلاحظ أن أم مركز توزيع الخطوط الهندسية للصدفة من يتوسطه صليب يشع منه النور على هيئة خطوط .

وينجح الفنان القبطى فى النهاية فى ابتكار أسلوب تجريدى جديد لم يعد مرتبطا بالفنين الهيلينستى والبيزنطى ويتوصل فى اتباعه لهذا الأسلوب الجديد ، إلى تكوين زخارف هندسية من التفريغات النباتية (ش ٩٩) .



(شكل٩٨) صدفة من الحجر يتوسطها نحت علامة الصليب
المتحف القبطى بالقاهرة

(شكل ٩٩) لوحة من الحجر بها زخارف هندسية محفورة من وحدات نباتية . باويت ، متحف برلين .



(شكل ١٠٠) تاج عمود كورنثى عثر عليه فى باويت ، متحف اللوفر .





(شكل ١٠١) تاج عمود عثر عليه فى باويت مزخرف بوحدات الأكنتس المحورة مع الصليب ، متحف اللوفر .

وتمتاز الكنائس والأديرة القبطية بما تحتويه من أعمدة حجرية تنتهى بتيجان مزخرفة بوحدات متعددة نباتية أو حية أو هندسية . وكانت التيجان الأولى منقولة من الطراز الكورنثى الرومانى وتوجد أمثلة منها فى كنيسة القديس مينا .

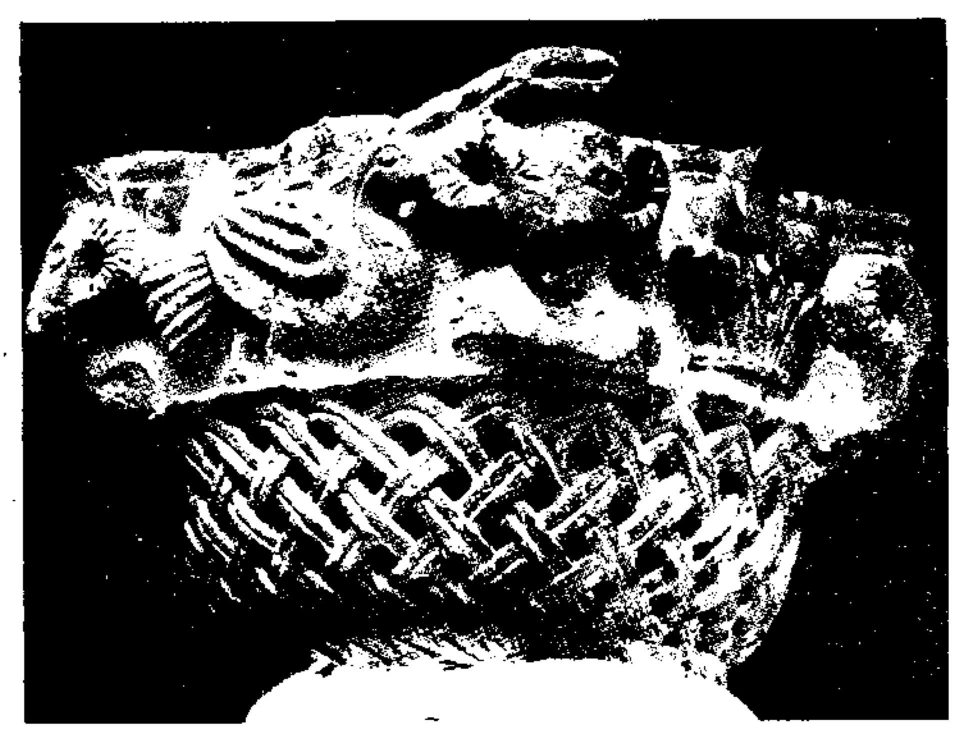
إلا أننا نلاحظ بدأ ظهور تطور واضح فى أسلوب نحت التيجان الكورنثية بعد ذلك . فبالرغم من أن شكلها العام يحاكى التاج الكورنثى إلا أن المسافة بين صفوف الأوراق الأفقية قد زاد اتساعها ، كما مالت أطراف الأوراق المدببة بدلا من اتجاهها إلى أعلى (ش ١٠٠) وكادت أطراف الصف العلوى تلمس السقف .

ويزداد التطوير فى تيجان أعمدة باويت التى نحتت فى القرن الخامس حيث نلاحظ أن أوراق نبات الأكنتس قد بسطت وظهر بها حروف مسننة (ش ١٠١) بدلا من أشكالها الطبيعية وهنا نلاحظ أن الفنان القبطى قد أظهر اهتماما بتأكيد شخصية الفن المسيحى بزخرفة تاج العمود برموز مسيحية . فسرعان ما حل الصليب محل الثمرة فى تفريعات النبات الرأسية .

ولقد تنوعت أشكال تيجان الأعمدة تنوعاً كبيرا فى الكنائس القبطية ، فنلاحظ أن تفريعات النبات تشابكت وأخذت شكل السلال منذ القرنين الرابع والخامس . وظهرت نماذج لهذا النوع فى سقارة والأشمونين وباويت والإسكندرية (ش ١٠٢) ولقد ظهرت التيجان المشكلة على هيئة السلال فى العمارة البيزنطية فى القرن الخامس .

ولقد أضاف الأقباط ابتكارا جديدا لهذا الطراز من السلال . فنلاحظ فى تاج من باويت أن تفريعات السلة قد حل محلها شبكة من تفريغات العنب (ش ١٠٣) بأوراقه وعناقيده . ويظهر بداخل السلة وحدات مقتبسة من الأسود .

ومن الملاحظ أن شكل أوراق العنب فى الشرق قد طرأ عليها تغيير كبير . حيث بسط الفنان القبطى فى شكل الورقة لدرجة أنها صارت فى بعض الأحيان رمزية . وتحولت إلى شكل هندسى متصل وبذلك مهدت إلى زخارف الأرابسك التى تميز بها الفن الإسلامى .



(شكل ١٠٢) تاج عمود منحوت على هيئة سلة بها طيور وكباش المتحف القبطى



(شكل ١٠٣) تاج عمود عثر عليه فى باويت مزخرف بوحدات نبات العنب وصليب . بمتحف برلين

النحت على الخشب :

مر فن الحفر على الخشب فى المراحل التى مرت بها النقوش الحجرية والجصية فنجد فى نقوش الألواح الخشبية التى صنعت فى أوائل العصر المسيحى تأثيرا من الفن الهيلينستى ، مثل الموضوعات النيلية التى تظهر بها التماسيح والسمك وزهرة اللوتس ، أو الأطفال الذين يصطادون هذه الأسماك . كما نلاحظ وجود تفريعات نبات العنب وعناقيده التى تميز بها هذا الفن .

وتتضح براعة الفنان القبطى فى الحصول على التأثير الزخرفى المطلوب فى حشوة فى باب كنيسة ست بربارة (ش ١٠٤) الموجود حاليًّا بالمتحف القبطى . وبالرغم من أن بعض الباحثين حاول أن ينسب هذا الباب (ش ١٠٥) إلى القرن الرابع ، إلا أن تفريعات العنب المنقوشة وهى تخرج من سلة ، تذكرنا بمثيلتها الموجودة فى كرسى الأسقف مكسيميليان برافينا (ش ٨٥) مما يرجح نسبته إلى أواخر القرن السادس بالرغم من اختلاف أسلوب النحت فى كل منهما .

وتتغير هذه العناصر فى آثار الفترة الانتقالية كما يتغير أسلوب النحت ، ويبدأ ظهور الصليب والملائكة فى زخارف الألواح الخشبية (ش ١٠٦) . كما يستخدم الفنان تفريعات النبات فى عمل إطارات حول عناصره الحية .



(شكل ١٠٤) حشوة خشبية مزخرفة بتفريعات العنب ، كانت فى باب كنيسة ست بربارة ، حالياً المتحف القبطى بالقاهرة

(شكل ١٠٥) باب كنيسة ست بربارة ، حالياً المتحف القبطي بالقاهرة .



(شكل ١٠٦) حشوة خشبية بها نقوش لتفريعات نباتية . تكون جامات تحصر بينها عناصر حية وصليب ، المتحف القبطي بالقاهرة

ويظهر الأسلوب القبطى المتبلور فى ألواح كنائس باويت وأبو سرجة والكنيسة المعلقة . فتزين أخشابها بالموضوعات المسيحية المختلفة مثل دخول المسيح منتصراً إلى القدس أو الشخصيات المقدسة . ويقل اهتمام الفنان بالمحافظة على نسب الأشخاص فى هذه الفترة .

ولقد استمر ازدهار فن حفر الخشب بيد أقباط مصر بعد دخول العرب وتظهر فى بعض الألواح موضوعات مسيحية مثل القديسين (ش١٠٧) لايراعى الفنان فيها تناسب حجم الرأس مع الجسد . كما يستخدم الفنان فى ذلك العصر موضوعات زخرفية ذات طابع إسلامى فى زخرفة أخشابه (ش١٠٨) ويتضح ذلك فى الحشوات التى وجدت فى كنيسة ست بربارة التى ترجع إلى القرن العاشر .

وينتشر فى العصر الإسلامى استخدام العاج فى زخرفة الأخشاب المنقوشة ، وتظهر براعة الفنان القبطى فى الأبواب والأحجبة بالكنائس القبطية (ش١٠٩) .

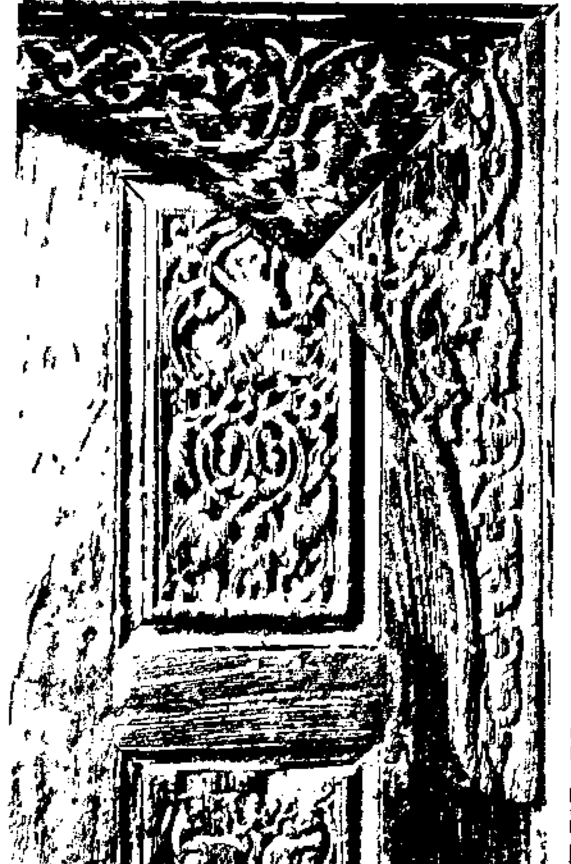
التصويـــــر :

توقف إنتاج مدرسة تصوير الأشخاص التى ازدهرت فى القرن الأول والثانى فى الفيوم ، بعدما منع الإمبراطور تيودور الثانى عادة تحنيط الموتى . كما أن زخارف الأفريسكو التى كانت تظهر بها الخلفيات المعمارية واشتهرت بها الإسكندرية توقف إنتاجها فى أوائل العصور المسيحية . ويظهر طراز جديد فى الأديرة المسيحية منذ القرن الخامس .

ويتميز هذا الأسلوب الجديد باهتمام الفنان برسم الأشخاص فى وضع المواجهة ، وهذا طراز انتشر فى الشرق . كذلك اعتنى بالتكوينات المعبرة أكثر من اهتمامه بتسجيل الدقة فى رسم الأشكال . وأهم نماذج هذا الأسلوب عثر عليه فى باويت وفى أم البريجات فى الفيوم وفى دير الأنبا أرميا بسقارة وهى محفوظة حالياً بالمتحف القبطى بمصر . كما عثرت بعثة بولندية على تصاوير جدارية فى دير ببلاد النوبة تتميز بدقة ومهارة كبيرة .

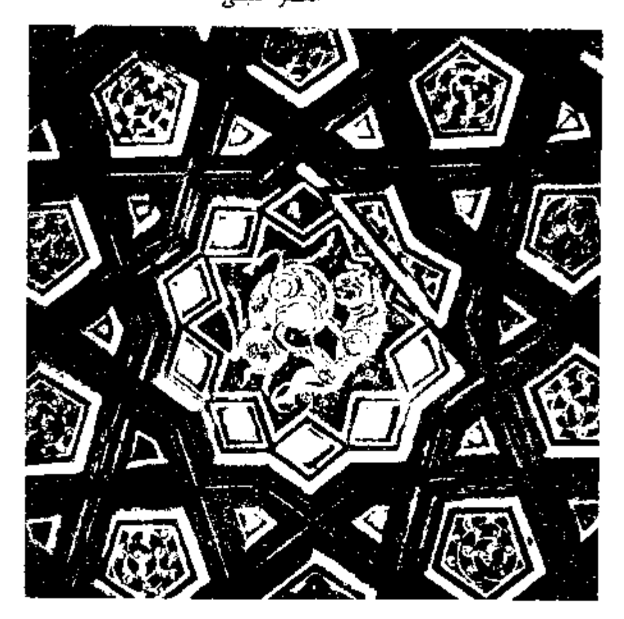
وكانت جدران هذه المبانى تشيد غالباً من قوالب الطين ، تطلى بعدها بالجص

شكل١٠٧) لوح من الخشب منقوش عليه شكل قديس





(شكل ١٠٨) باب كنيسة ست بربارة مزخرف بزخارف إسلامية العصر القبطى



(شكل١٠٩) نحت على الخشب مطعم بالعاج لحامل إنجيل المتحف القبطى

ثم يرسم عليها رسوم ملونة مستمدة من قصص الأنبياء وحياة المسيح . ووجدت أمثلة لذلك فى دير أرميا تصور أربعة من القديسيين (ش ١١٠) وفى أم البريجات تصور آدم وحواء (ش ١١١) وتتميز صور المثال الأخير بالطرافة والبساطة والأسلوب الشعبى .

كذلك غطيت المحاريب الموجودة فى صدر الكنيسة بتصاوير دينية ملونة ، وأهم هذه الأمثلة عثر عليها فى باويت وسقارة وهى حاليًا بالمتحف القبطى . ونلاحظ فى حنية من باويت (ش ١١٢) ترجع إلى القرن الخامس أو السادس أن الرسم ينقسم إلى قسمين ، القسم العلوى يتوسطه المسيح جالساً على عرشه يحمل بيسراه سفر الرؤيا ويبارك بيمناه ، ويحيط به الملاكان ميخائيل وجبريل . وفى القسم الأسفل نرى صورة العذراء جالسة تحمل المسيح وهو طفل ، ويحيط بها الاثنا عشر رسولا وقديسان شيدت الكنيسة تكريماً لهما . ونلاحظ فى أسلوب رسم الصورة أن الفنان رسم الأشخاص بخطوط قوية فى وضع المواجهة وبوجوه شاخصة وأعين لوزية ، وهذا طراز انتشر فى فن التصوير البيزنطى .

ويظهر هذا الطابع فى التصوير على الألواح الخشبية ويتضح ذلك فى لوحة خشبية تصور المسيح والقديس مينا (ش ١١٣) ، وكانت مصر من أهم مراكز تصوير الأيقونات ، واستمدت أسلوبها من مدرسة الفيوم ، ومن أحسن الأمثلة الموجودة فى دير القديسة كاترين أيقونة تصور قديساً (ش ١١٤) .

واستخدم الفسيفساء فى زخرفة جدران بعض الأديرة فى مصر بموضوعات مصورة ، ويتضح من دراسة زخارف تغطى حنية فى كنيسة العذراء بدير سان كاترين بسيناء (ش ١١٥) ، ترجع إلى ٥٤٠ م أن هناك تشابهاً فى أسلوب بعض الأشكال الزخرفية الموجودة بالكنيسة وزخارف سقف كنيسة سان فيتال بمدينة رافينا . ويرجع ذلك اشتراك عمال من بيزنطة فى زخرفة كل من الكنيستين فى عهد الإمبراطور جستنيان .

الفنون الصغيرة :

يظهر التطور الذى مر به الفن القبطى بعناصره المختلفة بصورة واضحة فى الفنون الصغيرة : العاج ، المعادن والمنسوجات .

(شكل١١٠) تصوير جدارى عثر عليه فى دير القديس إرميا تصور أربعة قديسين. المتحف القبطى



(شكل١١١) تصوير جدارى وجد فى كنيسة فى أم البريجات



(شكل ١١٢) تصوير جدارى يغطى حنية عثر عليه فى باويت يصور المسيح والعذراء . القرن السادس . حالياً بالمتحف القبطى بالقاهرة

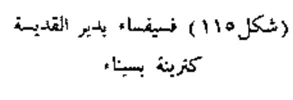


(شكل ١١٤) أيقونة تصور قديس القرن السابع . دير القديسة كاترينة



(شكل١١٣) تصوير على الخشب للسيد المسيح مع القديس ينا





(شكل ١١٥) فسيفساء بدير القديسة
كاترينة بسيناء



(شكل ١١٦) مشط من العاج مزخرف
من الجانبين بمواضيع دينية
حالياً بالمتحف القبطي بالقاهرة

(شكل ١١٧) قطعة من العاج مزخرفة
بملاك متحف بناكي أثينا



العاج :

اشتهرت الإسكندرية كمركز لإنتاج العاج فى الإمبراطورية الرومانية وكان يصنع للاستعمال الشخصى كالعلب والأمشاط . وكان الإنتاج الأول ذا طابع هيلينستى وتميزت مصر بطراز خاص يقلد الطبيعة وتصميات مزدحمة . إلا أن الطراز المصرى الشعبى يظهر فى المراكز الصغيرة . وتظهر به زخارف دينية منفذة بأسلوب شعبى بسيط ويتضح ذلك فى مشط عثر عليه فى مدينة أنطونيو يرجع إلى القرن السادس ، ومحفوظ حالياً بالمتحف القبطى (ش١١٦) . وفى قطعة عاجية من نفس الفترة محفوظة فى متحف بناكى منقوشة بوحدة ملاك (ش١١٧) .

المعادن :

استخدم الأقباط المعادن فى عمل أدوات ترتبط بالكنيسة كالمباخر والصلبان والمسارج والشمعدانات ، إلخ ، كما استخدم أيضاً فى عمل أوان للاستخدام المنزلى وكانت المسارج والشمعدانات تصنع من البرونز . وتظهر فى القناديل المسيحية أشكال الصلبان كما تظهر أحياناً على الشمعدانات زخارف هيلينستية (ش١١٨) مما يحمل المرء على التساؤل كيف استخدم الطراز الوثنى فى الكنائس .

المنسوجات :

تعتبر المنسوجات القبطية من أهم الفنون التى ظهر فيها تطور الفن القبطى المسيحى . وكان الأقباط يتقنون هذه الصناعة إتقاناً كبيراً ، ويصدرون منسوجاتهم إلى روما وبيزنطة فى فترة الحكم الرومانى . ولما كان الفن القبطى فناً شعبيًّا لايخضع لرقابة الحكومة نجد أن مراكز صناعة المنسوجات لم تقتصر على المدن الكبيرة ، بل انتشرت فى البلاد الصغيرة أيضاً . وكانت مراكز المنسوجات الكتانية فى مدن مصر السفلى ، واشتهرت منها الإسكندرية وتنيس وديبق وشطا ودمير والأشمونين ، كما انتشرت مراكز صناعة المنسوجات الصوفية فى مصر العليا فى أخميم وأنطونيو وأسيوط وأهناس والبهنسا والفيوم . وكانت هذه المنسوجات تزخرف بزخارف متعددة تتفق مع الزى أو مع الستور والأغطية .



(شكل ۱۱۹) قطعة النسيج من القباطى بها
زخرفة لإله النيل



(شكل ۱۱۸) زخارف معدنية على شمعدان تصور أفروديت بين زوج من أيروس
القرن الرابع أو الخامس . بمتحف اللوفر



(شكل ۱۲۰) قطعة نسيج مزخرفة بموضوعات
وثنية . القرن الرابع - الخامس . متحف اللوفر

وتنحصر المنسوجات التى عثر عليها من الفترة المسيحية فى مصر فى بعض ستاير وأغطية وملابس . وكانت عادة الأقباط فى حالات الموت تكفين موتاهم بأفخر أزيائهم . ويزخرف الزى القبطى بأشرطة رأسية وأفقية . وكانت الزخارف إما منسوجة فى القماش أو تنسج فى جامات تضاف فوق النسيج ، كما كانت تطرز فى بعض الحالات . ويحصل النساج على هذه الزخارف بواسطة خيوط صوفية ملونة تضاف إلى النسيج الكتانى **(شكل أ)**.

وأفخر قطع النسيج القبطية هى التى عثر عليها فى مدينة الشيخ عبادة « أنطونيو » التى كانت مركزا هاما فى فترة الحكم الرومانى وتسكنها جالية من كبار الرومان .

وتنقسم المنسوجات القبطية الواقعة فى الفترة من القرن الثالث إلى القرن الثامن إلى ثلاثة أقسام مثلما كان متبعا فى تطور الفن القبطى . فزخارف المرحلة الكلاسيكية تستمر لفترة تظهر بعدها عناصر زخرفية مستمدة من الدين المسيحى الذى صار دين الدولة الرسمى .

ونلاحظ أن هذه العناصر الأخيرة انحصر استخدامها بصفة خاصة فى زخرفة ملابس رجال الدين ، بينما استمر استخدام العناصر الأولى شائعا فى زخارف الملابس العادية بالإضافة إلى الزخارف الدينية . كما نجد أن زخارف المرحلة الأولى عبارة عن تقليد الطبيعة تقليدا تاماً ، كما تطابق الألوان المنسوجة الألوان الطبيعية . وفى الغالب تنسج هذه الزخارف بطريقة القباطى .

ومن أحسن نماذج زخارف الفترة الأولى التى ترجع إلى القرن الثالث ، زخرفة فى جامة مستديرة لإله النيل (ش ١١٩) الذى رمز له برجل ملتحيا جسده عار . ويتوج الرأس إكليل من أوراق الشجر ، كما يوجد قرن الرخاء أمام الكتف الأيسر . ويتضح الأسلوب الهيلينستى فى هذه القطعة فى محاكاة الشكل الطبيعى بدقة .

ومن القطع المزخرفة بموضوعات وثنية ذات عناصر إغريقية رومانية وترجع إلى القرن الرابع ، جامة مربعة مزخرفة . بإطار من أوراق الأكنتس (ش ١٢٠) . ويتوسط الجامة زوج من الإلهة إيروس تقطف ثمار العنب من النبات المتفرع من

سلة . والسلال والزهريات التى تخرج منها العناصر النباتية ظهرت فى الفن الهيلينستى .

وتعرف مجموعة المرحلة التالية الانتقالية باسم الطراز المسيحى وذلك لاستمرار ظهور عناصر من الموضوعات الوثنية بجانب الرموز المسيحية كالصليب والسمك ، وقد يظهر فى زخارف تلك الفترة شخصيات وثنية مثل الإلهة فينوس (لوحة ملونة رقم ٣) التى نراها بين الموضوعات النيلية التى يظهر بها السمك وزهرة اللوتس . إلا أننا نلاحظ أن العناصر الآدمية والحيوانية الموجودة فى تلك الزخارف ينقصها طابع الحركة والحيوية التى تميزت به آثار الفترة الهيلينستية . وتنحصر آثار تلك الفترة فى القرنين الخامس والسادس .

ولقد ابتكر الأقباط تصميمات زخرفية تصلح لنوع من النسيج القباطى استخدم ستورا تعلق على الجدران ، وكانت هذه التصميمات إما أن تغطى السطح كله أو توضع فى نهاية الستارة على هيئة عقود ، تحصر بينها شخصيات آدمية (ش ١٢١) وتصور هذه الشخصيات نساء أو رجال متعبدين . ولقد عثر على هذه القطعة فى جبانة الشيخ عبادة .

أما الطراز القبطى الذى تنحصر آثاره فى القرنين السادس والسابع فتخلو زخارفه من تأثير الأسلوب الهيلينستى كما تختفى منه العناصر الوثنية ، كما يظهر به أيضا زخارف



(شكل ١٢١) قطعة نسيج مزخرفة بعقود تحصر بينها شخصيات آدمية كتبت أسمائهم بحروف لاتينية.

مقتبسة من الموضوعات الدينية ، مثل قصة النبى يوسف مع إخوته (ش١٢٢) وقصة إسماعيل الذى فداه الله بكبش ويتضح فى زخارف تلك الفترة شخصية وطابع الفن القبطى الذى ابتعد عن تقليد الطبيعة .

ويتضح الأسلوب المحور الذى تميز به الفن القبطى فى زخارف المنسوجات التى ترجع إلى الفترة المتأخرة . وتتميز الشخصيات الموجودة برؤوس كبيرة وأعين واسعة وتحوير كبير فى الشكل العام يخرجه عن الشكل الطبيعى .

فنرى الطفل إيروس ممسكا حيوانا له أربع أرجل غير متماثلة (ش١٢٣) يظهر سابحا فى مناظر نيلية . ومن كثرة المبالغة فى التعبير عن الأشكال الحية أرجح أن هذه القطعة ترجع إلى مابعد الفتح الإسلامى .

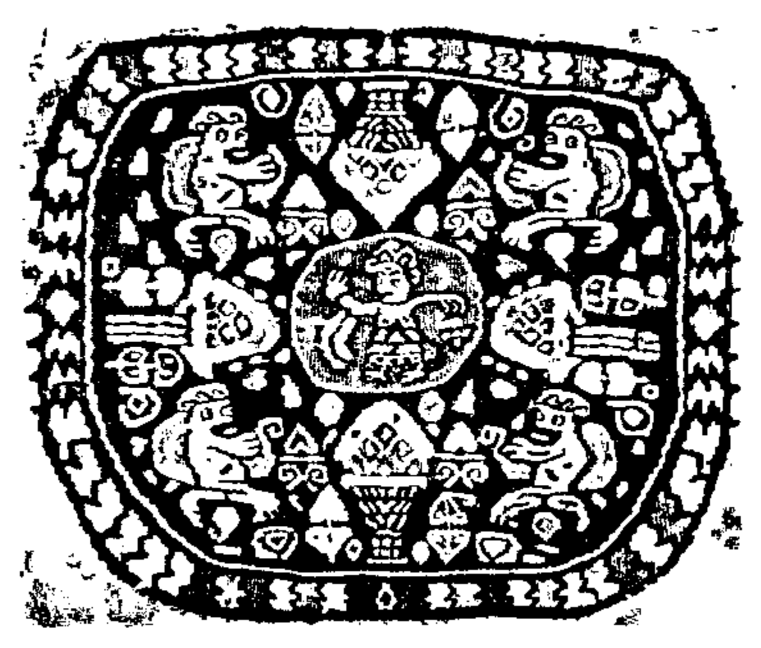


(شكل ١٢٢) قطعة نسيج مزخرفة بموضوع دينى (قصة النبى يوسف) بمتحف الارميتاج بلننجراد .



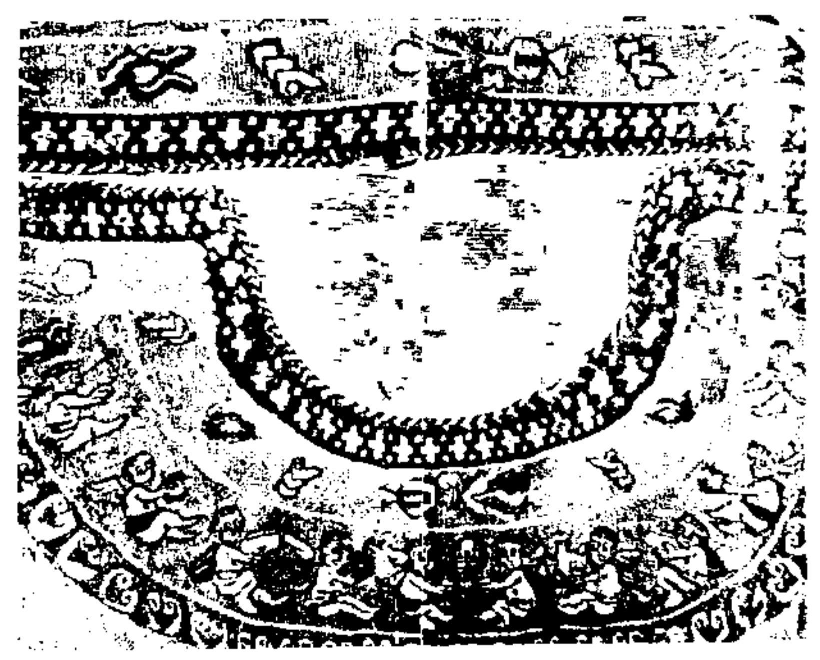
(شكل ١٢٣) قطعة نسيج مزخرف بزخارف حية محورة القرن السابع .

ويزداد تحوير شكل الطفل إيروس فى زخارف جامه مستديرة يمكن إرجاعها إلى الفترة المتأخرة (شكل ١٢٤)، حيث نرى وحدات متكررة تصور إيروس مع عناصر نباتية وسلال تحوى فاكهة.



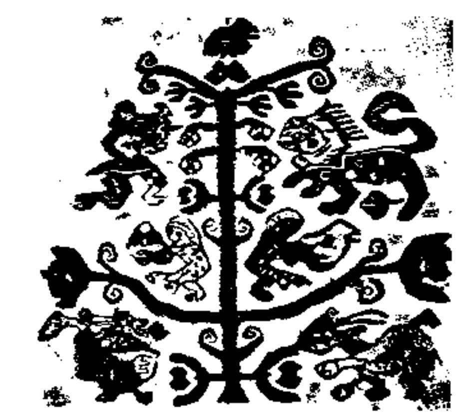
(شكل ١٢٤) قطعة نسيج مزخرف بوحدات إيروس [القرن السابع]

ولقد كانت هذه الشخصية الإغريقية محببة لدى النسَّاج القبطى، وأكثر من استخدامها بعد أن تجاهل معناها الأسطورى، ويتضح ذلك فى إطار يزين ثوبًا من الكتان (شكل ١٢٥) يظهر فيه مجموعة من هؤلاء الأطفال يسبحون فى الماء، ويلاحظ الأسلوب القبطى الشعبى فى العيون المتسعة.



(شكل ١٢٥) صدرية ثوب مزخرف بوحدات ايروس [القرن السابع]

ولقد تأثر النسَّاجون الأقباط بالزخارف التى انتشرت فى الفن الساسانى، فشجرة الحياة التى ظهرت فى المنسوجات القبطية هى تأثيرات ساسانية (شكل ١٢٦)، وفى بعض النماذج تخرج هذه التفريعات النباتية، من أوانٍ أوسلال (شكل ١٢٧)، فنرى فى هذه القطعة الموجودة فى «ڤينا» أن نبات العنب يحصر فى فروعه طُيُورًا وأرانب. ومن التأثيرات الساسانية رسوم أشكال آدمية فى مربع بوضع المواجهة (شكل ١٢٨)، كما أن زخارف الرءوس الآدمية التى تظهر



(شكل ١٢٦) قطعة نسيج مزخرفة بشجرة يحيط بها شخصيات حية



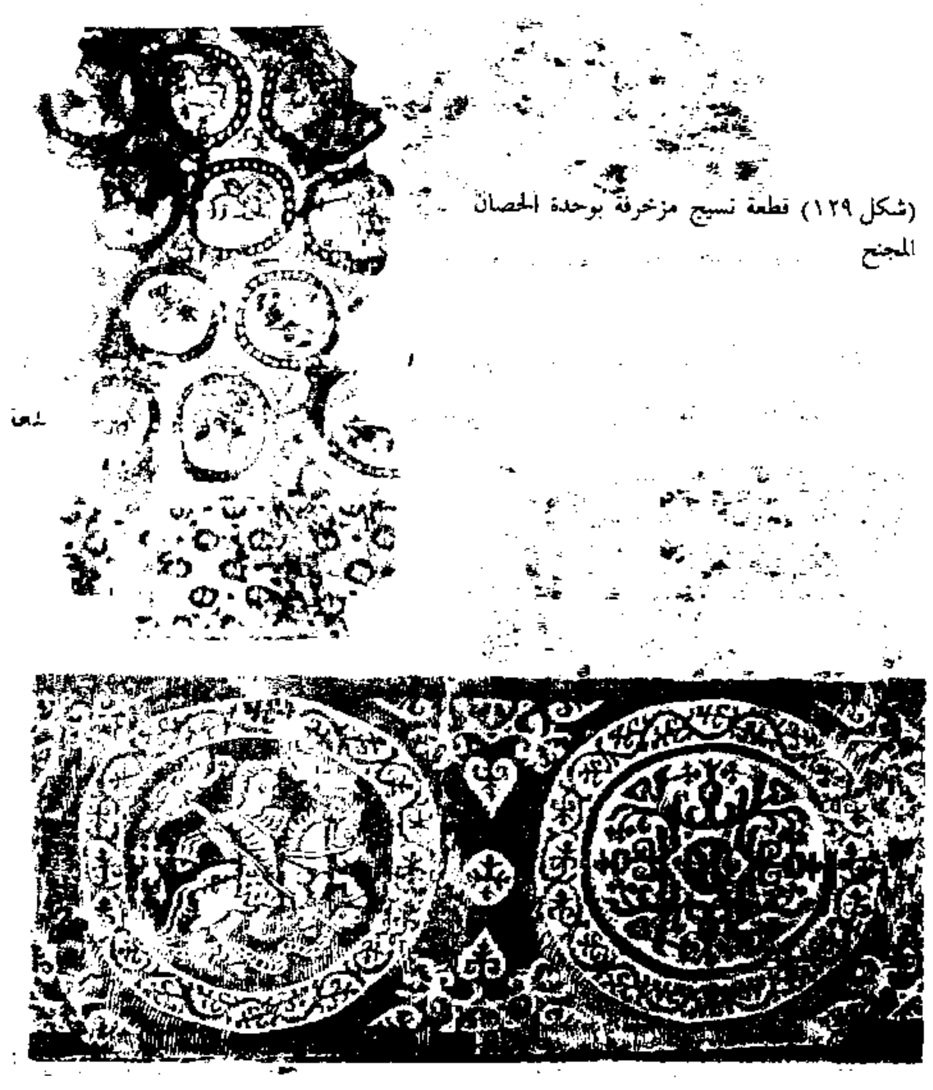
(شكل ١٢٧) قطعة نسيج مزخرفة بتفريعات نبات العنب يخرج من سلة [القرن السادس]

بدون رقاب عُرفت فى الفن الساسانى، وكذلك زخارف الخيول المجنحة التى وجدت فى منسوجات مقابر مدينة الشيخ عباده،هى وحدات انتشرت فى الفن الساسانى، فنرى فى زخارف ستارة، يمكن نسبتها إلى القرن السادس (شكل ١٢٩)، مجموعة من الجياد المجنحة داخل جامات مستديرة، تحيط بها زخارف بيضاء مستديرة، عُرفت باسم حبات اللؤلؤ، ذاعت فى الفن الساسانى.



(شكل ١٢٨) قطعة نسيج مزخرفة بوحدة آدمية يتوسطها مربع
وحولها زخارف لرؤوس ادمية بدون أعناق [القرن السادس]

ومن الملاحظ أن الوحدات الزخرفية التى نقلها النساجون الأقباط عن الفنون الهيلينية الرومانية السابقة قد تغير مفهومها عندهم، فالفارس الذى شُوهد بكثرة فى منسوجات الفترات الأولى والثانية. وقد تحول إلى شخصية دينية فى جامة بمتحف برلين (شكل ١٣٠)، فنراه فارسًا ممسكًا بحربة يصوبها على ثعبان، وبذلك تكون الوحدة تصور القديس «مارجرجس» منتصرًا على إله الشر.



(شكل ١٢٩) قطعة نسيج مزخرفة بوحدة الحصان المجنح

(شكل ١٣٠) قطعة نسيج مزخرفة بفارس ممسكا حربه

وتظهر في زخارف الفترة المتأخرة الرموز المسيحية، فيظهر الصليب داخل إحدى الجامات التي تزخرف شريطا به وحدات حية وآدمية (شكل ١٣١). ويظهر الصليب في تصميم مبتكر في مثال يوجد الآن بمتحف بروكلين



(شكل ١٣١) شريط من النسيج مزخرف بجامات تحصر وحدات حيه وصليب

(شكل ١٣٢)، فنرى الصليب وكأنه معلق بسلسلة يزخرف النسيج. وفكرة تعليق الرمز الديني فى سلسلة تتدلى من عنق لابسها، عُرفت عند قدماء المصريين،



(شكل ١٣٢) ثوب مزخرف بأشرطة أفقية ورأسية وسلسلة يتدلى منها الصلب

فنرى فى تمثال أحد الكهنة (شكل ١٣٣)، علامة عنخ رمز الحياة عند قدماء المصريين تتدلى من عنقه.

ومن الملاحظ كثرة ظهور الشخصيات الآدمية المتعلدة فى زخارف الفترة الأخيرة، وبتحوير كبير، ويتضح ذلك فى زخرفة شريط (شكل ١٣٤)، منفذ بطريقة القباطى، فنرى سيدة فى وضع التعبد رافعة يدها اليمنى، وتحمل طفلاً بيدها اليسرى، وتحيط برأسها هالة.

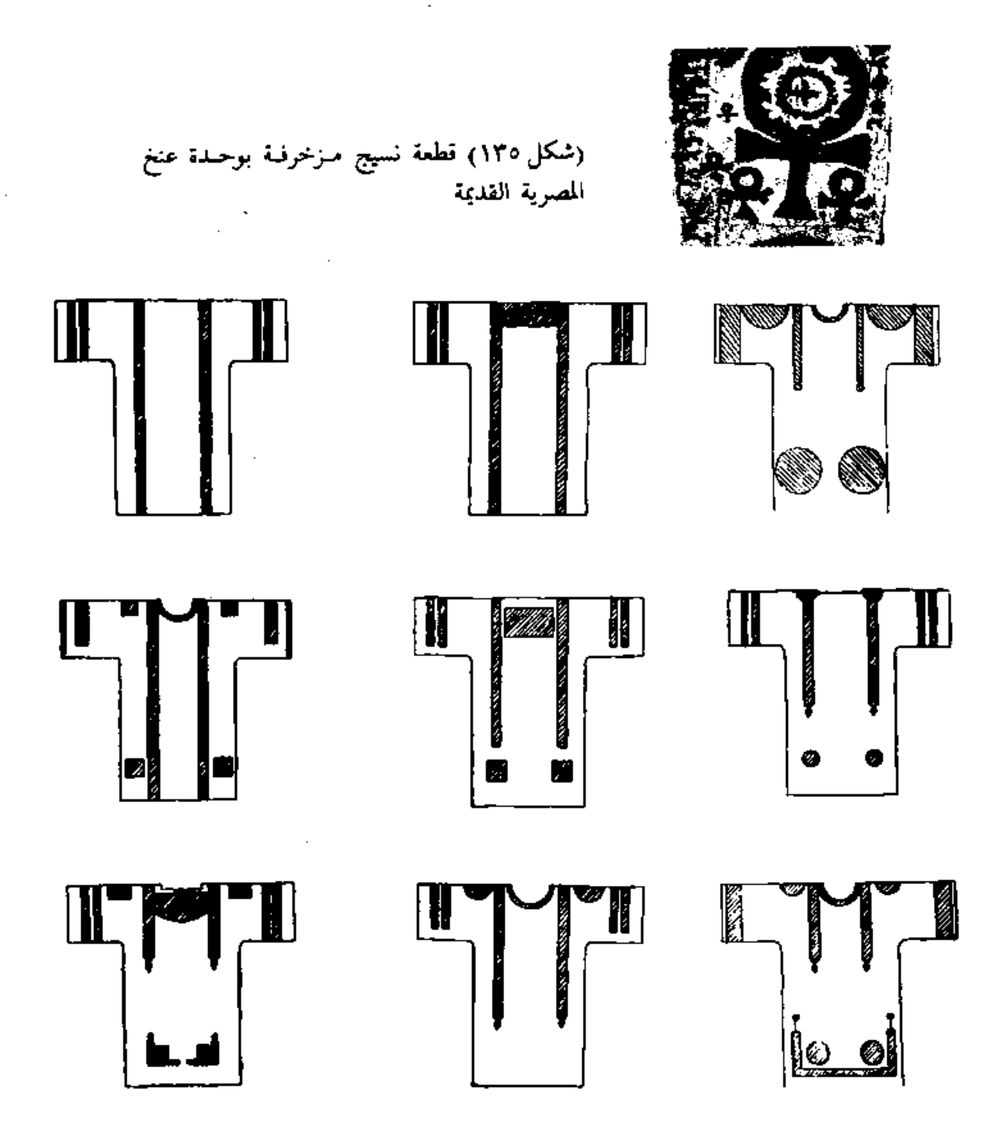


(شكـل ١٣٣) تمثـال من الحجر لكاهن يرتدى سلسلة يتدلى منها علامة عنخ

(شكل ١٣٤) شريط مزخرف بوحدة سيدة متعبدة



وبالرغم من أن الفن القبطى أصبح له شخصية وطـابع شعبى منـذ القرن السادس الميلادى، فإن زخارف المنسوجات القبطية لم تَخْلُ من العناصر المصرية القديمة، مثل المناظر النيلية، وعلامة عنخ (شكل ١٣٥)، ولقد استمر أسلوب زخرفة المنسوجات القبطية قائمًا فترة بعد الفتح الإسلامى.



(شكل ١٣٥) قطعة نسيج مـزخرفـة بوحـدة عنخ المصرية القديمة

الفصل الثالث

سوريا وفلسطين

الفن المسيحى

تمهيد تاريخى :

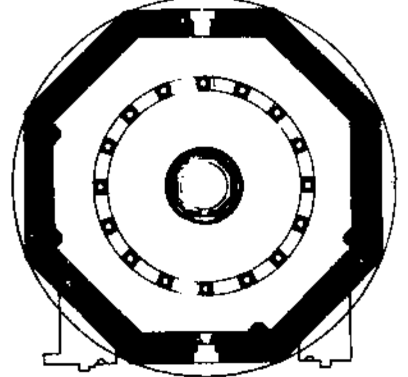
عندما ظهرت المسيحية فى فلسطين فى القرن الأول الميلادى فى فترة حكم الرومان لمنطقة الشرق الأوسط ، كان لسوريا ومصر دور رئيسى فى نشأة الحضارة والفنون المسيحية ، فكلمة المسيحيين أو « أتباع المسيح » ظهرت فى أول الأمر فى مدينة أنطاكية فى حوالى عام ٤٠ م ، كما أن أسس العقيدة المسيحية تأسست فى المجالس المتخصصة فى الإسكندرية .

ولم تقتصر مساهمة سوريا وفلسطين على تكوين المسيحية الأولى وإرساء قواعدها ، بل نجد أنها ساعدت أيضاً على نقل التأثيرات الفنية الموجودة فى الشرق إلى الفن الرومانى ، فبالرغم من أن مدينة تدمر دمرت فى عام ٢٧٣ م فى عهد الإمبراطور أورليان ، فإن تأثيرها الفنى استمر ظهوره بعد ذلك التاريخ . كما ساهمت مدينة بعلبك التى كانت مركزاً للقوافل التجارية فى نقل هذه التأثيرات . وكانت التصاوير الجدارية التى وجدت فى مدينة دورا أوربا والتى ترجع إلى منتصف القرن الثالث هى النماذج الأولى التى اقتبس منها الفن المسيحى الشرقى .

ولقد بدأ انتشار المسيحية فى أول الأمر بين التجار السوريين الذين يسكنون فى المدن التى نشأت فى العصر الهيلينستى . ولقد قاسى المسيحيون كثيراً فى عهد الأباطرة المتزمتين ، إلا أنه من الجائز أن الحال تغير بعد انهزام زنوبيا ملكة تدمر عام ٢٧٢ وصار للمسيحيين فى سوريا سلطة مطلقة .

العمارة :

باستثناء المبنى المسيحى الذى عثر عليه فى دورا أوربا والذى يتوسطه فناء ، والمغطى جدرانه من الداخل بتصاوير جدارية ذات موضوعات دينية ، لم يعثر فى سوريا على أى أثر للفن المسيحى قبل عصر قسطنطين . والظاهر أن هذه المنازل التى كان المسيحيون يجتمعون فيها اقتصر وجودها فقط على المدن الصغيرة ، وربما كانت المواد التى شيدت منها بدائية لذلك لم يعثر لها على أثر . ولقد استمدت الكنائس الأولى التى شيدت بشمال سوريا فى القرن الرابع تصميمها من هذه المنازل ، حيث عثر على كنيسة فى بلدة كركبزى يتوسطها فناء .



(رسم ز)
فسيفساء من العصر الرومانى المسيحى
لمدينة القدس (القرن السادس الميلادى)

نشطت حركة العمارة الدينية فى سوريا وفلسطين فى القرن الرابع بعد اعتناق قسطنطين للمسيحية ، وازداد حماس الإمبراطور بالعناية بالأماكن المقدسة ، فشيد كنيسة بازيليكية فوق الموقع الذى دفن فيه المسيح ، كما شيد فوق جبل الزيتونة مبنى دينيًا على هيئة دائرة داخل منحن حول الصبخرة الذى قيل إن المسيح قد صعد من فوقها إلى السماء (رسم ز) . كذلك شيد فوق مكان ولادة المسيح مبنى مثمناً ألحق به كنيسة بازيليكية (ش ١٢٧) كما أقام كنيسة بازيليكية فى بعلبك . ولم يعثر حتى الآن على الكنيسة المثمنة التى قيل إنه شيدها فى أنطاكية العاصمة السورية . وكان قسطنطين الثانى ٣٦١م يفضل الإقامة فى هذه المدينة .

وفى خلال المائة عام التى تلت وفاة قسطنطين شيد عدد كبير من الكنائس

البازيليكية فى شمال سوريا . ويظهر بواجهة هذه الكنائس السورية منذ القرن الخامس برجان على جانبي المدخل . ومن أحسن عمائر القرن الخامس قلعة السمان التى شيدت إحياء للقديس سيمون الذى توفى فى عام ٤٥٩م فى فترة حكم الإمبراطور « زينو » .

ويتضح من دراسة هذه العمارة (ش ١٢٨) أنها تتكون من مبنى مثمن يمتد منه أربعة أضلاع مشيدة على شكل بازيليكا . ويتكون من الجميع شكل الصليب . وتتميز قلعة السمان بفن عمارة متقدم فى عمل العقود كما تعتبر من العمائر العظيمة التى شيدت فى الشرق قبل كنيسة القديسة صوفيا بالقسطنطينية

والظاهر أن مدينة القدس كان مشيدا بها كنيسة عرفت باسم الروح المقدسة ، ويتضح ذلك من فسيفساء وجدت فى مدينة مادابا بالأردن (ش ١٢٩) .

ويلاحظ أن الكنائس التى شيدت فى سوريا بعد ذلك فى القرن السادس كانت تقليداً للنماذج الحجرية الأولى . ويستثنى من ذلك المبانى التى شيدت فى قصر بن وردان فى حوالى عام ٥٦٤م ، حيث استخدم فيها الطوب بدلا من الحجر . ويذكرنا التصميم والطراز والفخامة التى تتميز بها الزخارف بالمبانى الإمبراطورية فى بيزنطة .

كانت المبانى التى شيدت فى فلسطين فى القرنين السادس والسابع مستوحاة من نماذج بيزنطية . ويتضح ذلك فى كنيسة القديس سرجيوس التى شيدت فى غزة فى القرن السادس ، وفى كنيسة مدينة رصافة التى كان تصميمها مستمداً من الطراز البازيليكى وتعلوها قبة .

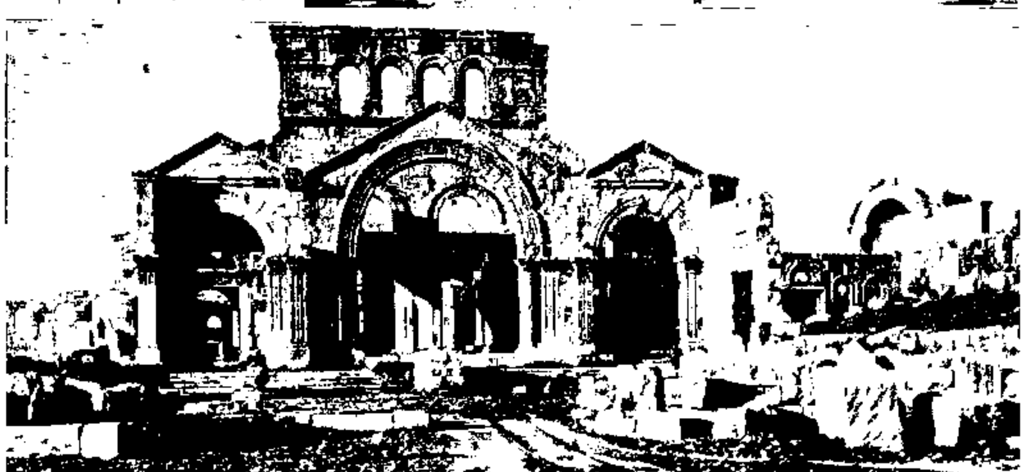
النحت على الحجر :

تظهر مهارة النحاتين السوريين بصفة خاصة فى النقوش النباتية التى تزخرف المبانى المسيحية . وتوجد هذه الزخارف المنسقة فى إطارات رأسية أو أفقية تحيط بالأبواب . ونرى أمثلة منها فى زخارف العقود فى قلعة السمان . ويظهر تأثير الفن الرومانى فى تيجان أعمدة الكنائس ، ونلاحظ ذلك فى تيجان أعمدة قلعة السمان المنقولة عن الطراز الكورنثى الرومانى .

(شكل ١٢٧) كنيسة بازيليكة بيت المقدس.



(شكل ١٢٨) مبنى قلعة السمان بسوريا ويظهر من الصورة زواق البازيليكا الجنوبية. حوالى عام ٤٧٠م.







(شكل ١٢٩) فسيفساء عثر عليها فى مدينة ما دابا بالأردن.

(شكل ١٣٠) تصوير جدارى وجد فى مدينة دورا أوروبا.

التصوير :

كان التصوير الجدارى حتى أوائل القرن الرابع الميلادى هو الوسيلة الوحيدة التى استخدمت فى زخرفة جدران المنازل والقصور ، ثم بدأ بعد ذلك استخدام الفسيفساء فى زخرفة الجدران . وترجع أهمية تصاوير مدينة دورا أوربا بالنسبة للفن المسيحى إلى أن ألوانها وطرازها وتصميماتها تأثر به العصر البيزنطى . وتشمل الصور التى وجدت فى منزل الجالية المسيحية على موضوعات من العهد القديم والإنجيل (ش ١٣٠) وتعتبر هذه أول محاولة يرسم فيها المسيح فى الفن المسيحى ، ويظهر المسيح مرسوماً فى وضع المواجهة . ويتضح من صور دورا أن الموضوعات الدينية وجدت فى الشرق قبل الغرب .

ولقد استخدمت الفسيفساء التصويرية على نطاق واسع فى سوريا وأحسن مجموعة عثر عليها فى أنطاقية كانت تغطى الأرضيات . وتتكون الزخارف من أزهار موزعة على الأرضية أو من وحدات لغزلان مجنحة أو أسود تحمل أكاليل ، ويتضح فى زخارف فسيفساء أنطاكية التأثير الساسانى الذى ظهر فى عصر جستنيان .

المخطوطات :

كانت المخطوطات الدينية التى صورت للإمبراطورية البيزنطية فى الغالب من إنتاج المراكز السورية . ومن أوائل هذه المخطوطات ، مخطوطان يرجعان إلى القرن الخامس ، الأول ينسب إلى مدينة سيبون ومحفوظ بالمكتبة الأهلية ، والثانى ويعرف باسم إنجيل كوتون ويوجد حالياً بالمتحف البريطانى ، وتشغل الصور فى هاتين المخطوطتين الربع الأسفل من الصفحة . ويتميز الأشخاص المرسومة برأس كبير وجسم صغير غير متناسب . كما نلاحظ فى الأوجه نظرات شاخصة تذكرنا بالأسلوب السورى الذى ظهر فى تصاوير دورا فى عام الفترة (٢٣٠ — ٢٤٥) مما يدل على أنه استمر بعد ذلك لمدة قرنين .

ويتضح الطابع الهيلينستى الذى كان سائداً فى سوريا ، فى المخطوطات المليئة بالحركة والانفعالات . ويوضح ذلك صورة تمثل الصعود (ش ١٣١) وجدت

فى مخطوطة مؤرخة عام ٥٨٦ عرفت باسم مخطوط رابولا[١] . وتتميز هذه المخطوطة بأنها مكتوبة باللغة السورية وليست الإغريقية . ولقد نشر الأسلوب الواقعى الرهبان السوريون واتضحت ملامحه فى العاصمة أنطاقية على حين حافظت الإسكندرية على تقاليدها الكلاسيكية .

ونلاحظ فى رسم هذه المخطوطة أن الفنان قدتمكن من ربط الموضوع العلوى السماوى بالصورة السفلية الأرضية بواسطة الحواريين الذين ينظرون إلى أعلى ويشاورون .

الفنون الصغيرة :

العاج :

كانت صناعة العاج متقدمة فى سوريا وفلسطين وفينيقيا منذ قديم الزمان وأحسن مثل لذلك عرش ملك دمشق الذى عثر عليه فى أرسلان تاش . واشتهرت مدينتا أنطاكية والإسكندرية كأهم مراكز للأشغال العاجية فى الإمبراطورية الرومانية المسيحية فى القرن الخامس . واستخدمت الموضوعات الدينية فى زخرفة العاج منذ أن أصبح الدين المسيحى دين الدولة الرسمى .

ومن أحسن الأمثلة المسيحية السورية قطعة منقوشة بموضوعين (ش ١٣٢) ، ولادة المسيح فى أسفل والتقديس فى أعلى ، ونلاحظ فى تنفيذ هذه القطعة عدم اهتمام الفنان بالنسب الصحيحة للحجم حيث رسم الرأس بحجم كبير . ومما يميز هذا الطراز وضع المواجهة كما ترسم الأشخاص الأكثر أهمية بحجم أكبر . ولقد ظهرت هذه المميزات الشرقية فى فن سوريا الهيلينستى التى ضعفت فيها السيطرة الإغريقية .

المعـــادن :

ظهرت على المعادن التى استخدمت فى الكنيسة زخارف دينية ويتضح ذلك فى قنينة من الفضة ترجع إلى القرن السادس (ش ١٣٣) ويلاحظ أن الزخارف

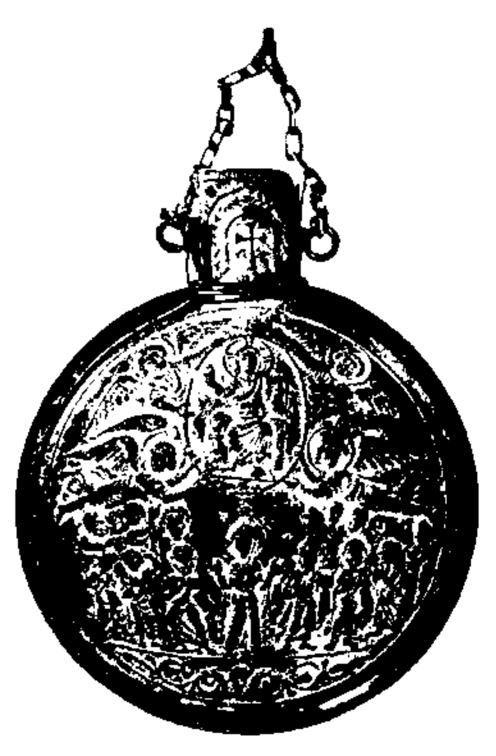
(١) تنسب هذه المخطوطة إلى راهب يدعى رابولا من بلاد النهرين . ويعتقد أنها كانت تخص كنيسة الصعود فى القدس .



(شكل ١٣١) مخطوط رابولا . صورة توضح الصعود .
مكتبة لورنتين بفلورنس



(شكل ١٣٢) قطعة من العاج منقوشة بمناظر دينية .
سوريا . القرن السادس . المتحف البريطانى



(شكل ١٣٣) قنينة من الفضة منقوشة بموضوع دينى حاليا
فى كتدرائية مونزا بإيطاليا



(شكل ١٣٤) قطعة نسيج مزخرفة بمناظر صيد محفوظة
بكنيسة القديس سرفاتيوس بألمانيا

المنقوشة تصور صعود النبي إلى الصلاة تحمله الملائكة . ويذكرنا أسلوب توزيع عناصر الموضوع برسوم مخطوط القديس رابولا (ش ١٣١) . وكان هذا النوع من الأوانى يجلبه الحجاج المسيحيون من القدس ويضعون فيه الزيوت المقدسة .

المنسوجات :

كانت صناعة النسيج من الصناعات المتقدمة فى سوريا . ويظهر من القطع القليلة التى عثر عليها فى تدمر وفى حلبية على نهر الفرات أنها كانت مصنوعة من الكتان ومزخرفة بالصوف أو بالحرير . وكانت زخارفها من النوع المنتشر فى المنطقة كالموضوعات الدينية المحصورة فى دوائر أو موضوعات الصيد (ش ١٣٤) . ولقد ظهر تأثير زخارف المنسوجات التدمرية فى المنسوجات القبطية .

الفصل الرابع

شمال أفريقيا

انتشرت المسيحية بطبيعة الحال فى شمال أفريقيا فى القرن الرابع بعد اعتراف الأباطرة الرومان بالدين المسيحى . واستمر الانتشار فى الفترة التى احتلت فيها جيوش الفندال أجزاء من شمال أفريقيا ، ورجعت تبعية شمال أفريقيا للدولة البيزنطية بعد أن تمكن الإمبراطور جستنيان من طرد الفندال من شمال أفريقيا فى عام ٥٣٤ .

العمـــــارة :

تدل مخلفات العصر المسيحى أن الحكام البيزنطيين قاموا بتحويل مبنى البازيليكا الرومانية إلى كنائس ، كما شيدوا كنائس جديدة فى بعض المراكز الإفريقية . ويتضح ذلك فى المدن الطرابلسية وفى قرطاج .

ويتضح من الآثار الباقية فى مدينة لبده أن الإمبراطور جستنيان قد حول البازيليكا الملحقة بميدان سويروس إلى كنيسة مسيحية (ش ١٣٥) . وأضاف إليها الأجزاء اللازمة للكنيسة . كما شيدت كنيسة فى مدينة صبراته زخرفت أرضيتها بالفسيفساء الجميلة . ومن مخلفات العصر البيزنطى فى قورينه (شحات) ، كنيسة كبيرة توجد خارج أسوار المدينة تزخرف أرضيات بهوها فسيفساء متنوعة الموضوعات . كما يوجد بالمدينة أيضاً تحصينات وأبراج .

وتشهد آثار مدن تونس والجزائر على وجود آثار من العصر البيزنطى ، حيث عثر على كنائس فى المراكز المهمة أجملها مايوجد فى تبسه وتيمقاد وقرطاج . ويتضح من تيجان أعمدة هذه الكنائس أن المعماريين قد أدخلوا عليها الأساليب البيزنطية ويتضح ذلك فى تاج عمود عثر عليه فى قرطاج (ش ١٣٦) .



(شكل ١٣٥) بازيليكا مدينة لبدة . بعد أن تحولت إلى كنيسة . ليبيا .



(شكل ١٣٦) تاج عمود مزخرف بأسلوب بيزنطي عثر عليه في قرطاج



(شكل ١٣٧) فسيفساء عثر عليها في قرطاج مقر رسيدة

التصوير :

كان للفن المسيحى فى أفريقيا فضل كبير فى إنتاج أكبر مجموعة من الفسيفساء الحائطية ، ولقد وجدت هذه الفسيفساء فى الكنائس والمبانى الدنيوية،ومن أحسن هذه المجموعات ماعثر عليه فى تونس .

ونلاحظ فى زخارف فسيفساء العصر البيزنطى ، أن الدين المسيحى قد منع استخدام المواضيع الوثنية التى كانت منتشرة فى العصر الإغريقى الرومانى ، وشجع على انتشار موضوعات مستمدة من الكتب المقدسة أو من تاريخ الأمم .

ومن أجمل هذه الأمثلة المسيحية لوحة عثر عليها فى قرطاج (ش١٣٧) تصور سيدة فى وضع نصفى يحيط برأسها هالة ويزخرف رأسها تاج . ونلاحظ فى هذه الصورة أن السيدة قد رفعت يدها اليمنى مع مد أصابع الوسطى والسبابة على غرار مانراه فى صور الرهبان المسيحيين الذين يمنحون البركة .

الباب الثالث

إيران

تمهيد تاريخي :

كان إخضاع الإسكندر الأكبر للإمبراطورية الفارسية التي أسسها كورش في الشرق ، فاجعة كبيرة أصابت إيران التي حمل حكامها الأكمينيون لمدة قرنين لقب ملك الملوك . وانتقل اللقب والإمبراطورية إلى البطل المقدوني بعد هزيمته لدارا الثالث . وبعد أن جلس الإسكندر على عرش دارا في مدينة سوسا العاصمة الفارسية في عام ٣٢٤ ق . م . ، شجع على إدماج الثقافة والعادات الفارسية بالروح الهيلينيـة ، فتزوج من إبنة دارا وشجع قواده على التزاوج المتبادل ، وتقرب إلى الفرس بتعيين أمرائهم في خدمته كما اعترف بالديانة الفارسية .

وبعد موت الإسكندر وقعت إيران من نصيب الدولة السلوقية التي تأسست في سوريا وبلاد النهرين ، وكانت هذه بداية لمرحلة من الاضطرابات سادت البلاد لفترة . فبعد أن زال نفوذ السلوقيين صار حكم إيران في يد شعب أصله من بدو السيث ، إلا أن إيران سرعان ماتمكنت من العثور على زعماء جدد تمكنوا من التحرر من سيطرة الغرب الهيليني ، فاستعادت البلاد مرة ثانية استقلالها بفضل زعامة الملوك الفرثيين الذين يحكمون في ولاية « فارثيا » الفارسية التي تقع جنوب غرب بحر قزوين .

ويرجع أصل الحكام الجدد إلى الجنس الهندوأوربي الذي هاجر إلى إيران في أواخر القرن الحادي عشر ق . م . لذلك نجد أنهم يزعمون نسبهم إلى ملوك الفرس الأكمينيين . ولقد ظهر الفرثيون في القرن الثالث قبل الميلاد في شمال إيران ، وانتهز مؤسس الأسرة « أرشاق » الحروب التي كانت قائمة باستمرار بين السلوقيين والبطالسة وأعلن استقلاله . وعظم نفوذ الفرثيين بالتدريج إلى أن تمكن أرشاق من طرد السلوقيين من إيران في عام ٢٥٠ ق . م . وأسس أسرة حاكمة عاصمتها أكباتانا .

وبعد استيلاء الرومان على ممتلكات العهد الهيليني الشرقية بدأت سلسلة من المناوشات بينهم وبين الفرثيين . وقد سببت هذه الحروب المتتالية انحلال الدولة مما ساعد أردشير الساساني على الإطاحة بحكم الدولة الفرثية وتكوين الدولة الساسانية في عام ٢٣٨ م . واستمر حكم الساسان لإيران حتى الفتح الإسلامي الذي بدأ في عام ٦٤٢ م .

الفصل الأول

الدولة الفرثية ـــ الفن الفرثى

تمهيد تاريخى :

كون الملك أرشاق أسرة حاكمة فى إيران فى عام ٢٥٠ ق . م . وكان أسماء أغلب ملوك الأسرة أفرهاط أو أرطبان أو متريدات ، وكانوا فى حروب مستمرة مع السلوقيين ، وتمكنوا فى عصر متريدات الأول (١٧٠ – ١٣٨ ق . م .) من فتح بلاد النهرين فى عام ١٣٩ ق . م . وطردوا أنطيوخس السابع من بابل وميديا . وبذلك تمت لهم السيطرة على بلاد النهرين . واتخذ الفرثيون سلوقية عاصمة لهم فى الشتاء ، واتسعت المدينة فى عهدهم من الجانب الأيسر لنهر دجلة وعرف هذا الجزء بعد ذلك باسم « طيسفون » ، وصار ملوكهم يحكمون إيران والعراق . واستمرت حروبهم ضد السلوقيين .

ولما استولى الرومان على سوريا بعد اتساع الإمبراطورية الرومانية بدأت سلسلة من المناوشات بين الرومان والفرثيين . إلا أن الجيش الفرثى القوى تمكن من الانتصار على الرومان فى معركة حران ٥٣ ق . م فى عهد يوليوس قيصر . وفى القرن الأول الميلادى كان الجزء الغربى من منطقة الشرق الأوسط جزءاً من الإمبراطورية الرومانية . أما العراق وإيران فكانتا تحت حكم الأسرة الفرثية .

استمرت الحروب بينهما سجالا من عام ١٦١ م حتى ٢١٧ م ، وتمكنت الإمبراطورية الرومانية من الاستيلاء على ممتلكات الفرثيين فى الغرب ووصلوا إلى طيسفون. وقد أدت هذه الحروب إلى ضعف الدولة ، كما قامت منازعات مستمرة بين الأمراء الفرثيين مما شجع أردشير الساسانى على الثورة على أرطبان الخامس والقضاء عليه عام ٢٢٦ م وكون الدولة الساسانية .

نشأت فى عهد الفرثيين مدن فى الصحراء السورية والعراقية استخدمت كمراكز للقوافل التجارية العربية أشهرها البتراء والحضر . وكانت مدينة الحضر العربية الواقعة

فى الصحراء العراقية بين دجلة والفرات من أشهر المدن العراقية فى زمن الفرثيين ، وذلك لوقوعها بين القوتين المتحاربتين الفرس من الشرق والرومان من الغرب . وكان يحكم هذه المدينة والمنطقة المحيطة بها سلالة عربية منذ القرن الأول للميلاد واستمر سلطانهم حتى منتصف القرن الثالث واشتهر من ملوكها نصر و رئيس الكهنة وابنه سنطرق الأول . ويرجح أنه كان معاصراً للملك الفرثى أولغاش الأول (٥١ – ٧٧ م) ولقب الملك سنطرق الثانى بملك العرب وانتهى شأن هذه المدينة بعد أن غزاها الملك شاهبور الأول الساسانى فى عام ٢٥٠ م .

يعتبر فن الفرثيين فترة انتقال بين الفن الفارسى الأكمينى الذى زال بالغزو الإغريقى المقدونى والساسانى القومى الذى يظهر فى إيران بعد ذلك ويستمر حتى الفتح الإسلامى . ولقد ساعد على تغلغل تقاليد الثقافة الهيلينية وفنونها انتشار الجاليات الإغريقية فى إيران حين كانت فى حوزة الإسكندر وخلفائه السلوقيين . ونلاحظ أن الأسلوب الهيلينى قد بسط نفوذه على الآثار التى ظهرت فى هذه الحقبة .

لا يظهر طابع فنى خاص بالفرثيين إلا بعد أن تمكنوا من طرد السلوقيين من العراق فى عهد متريدات الأول ، حيث يأخذ الطابع الفنى الفرثى فى الظهور فى الآثار المختلفة . إلا أنه للأسف لم يبق من الفن الفرثى آثار تذكر يمكن نسبتها إلى العائلة الحاكمة ، لأن الآثار التى عثر عليها هى من عمل الشعوب المختلفة التى خضعت لحكمهم .

العمـــارة :

آمن الفرثيون بعبادة النور والظلام مثل أجدادهم الإكمينيين . وشيدوا للنار هياكل حجرية عثر على نماذج منها فى برسيبوليس ونورآباد بولاية فارس . ويتضح فى طرازها المعمارى النمط المتبع فى تشييد هياكل النار الحجرية فى عصر الأكمينيين .

وباستثناء هذه الهياكل الحجرية لم يعثر فى إيران على آثار معمارية تذكر من العهد الفرثى ، وتنحصر معظم الآثار التى تساعد على دراسة طراز المعمار الفرثى فى خارج حدود إيران فى الأجزاء القريبة من الإمبراطورية ، حيث عثر على آثار ترجع إلى ذلك العهد

فى مدن « الوركاء وأشور والحضر » [١] وفى مدينة كوهى خفاجا فى إقليم سيستان بالعراق . وقد شيدت هذه المبانى بعدما تمكن الفرثيون من طرد السلوقيين من بلاد النهرين .

يتضح من دراسة آثار مدينة الحضر ، أن الفرثيين قد ابتكروا تصميماً جديداً للمدن – فخططوا هذه المدينة على هيئة دائرة يحيط بها سوران ، وبكل سور منهما أربعة أبواب كبيرة كما حصن السور الداخلى بأبراج ، وكان الآجر واللبن هى الخامة المستخدمة فى عمليات البناء . ويدل الطراز المعمارى لمبانى هذه المدينة على امتزاج الفنون العراقية القديمة ببعض التأثيرات الهيلينستية الإغريقية الرومانية وبعض الفنون الفارسية .

ويتوسط مدينة الحضر المعبد الرئيسى الكبير الذى شيد للإله شماش (مرن) إله الشمس (ش ١٣٨) وبجانبه معابد للآله أخرى . ويظهر بمعبد مرن كبير آلهة الحضر التأثير الهيلينستى . وتدل كثرة المعابد على ثراء أهل المدينة وعلى اندماج المعتقدات الشرقية والهيلينية

وجد كذلك بالمدينة آثار قصر وقبور ملوكها . ويختلف تخطيط القصر عن العهد الأكمينى ، كما اختفى استعمال الأعمدة فى حمل السقف ، فاستبدل السقف الأفقى بسقف مقبى ، وهذا وجد أيضاً فى آثار آشور ، وتعرف هذه القاعات باسم الإيوان . ويظهر فى مبانى الحضر العقود والأعمدة المتصلة بالجدران . وقد استمر ظهور فن العمارة الفرثية فى أسلوب العمارة الساسانية فيما بعد .

اهتم أهل الحضر بزخرفة سطح جدرانهم بزخارف من ملاط به جص ، وتشكل هذه الزخارف على جدران قصر مدينة الحضر على هيئة وجوه آدمية (ش ١٣٩) ، أو تشكل على هيئة زخارف هندسية كالتى عثر عليها فى مبانى كوهى خفاجا (ش ١٤٠) . وهذا الإسلوب جديد على الفن الإيرانى ، كما أن عمل زخارف على هيئة رءوس آدمية هو ابتكار ظهر فى العصر الفرثى

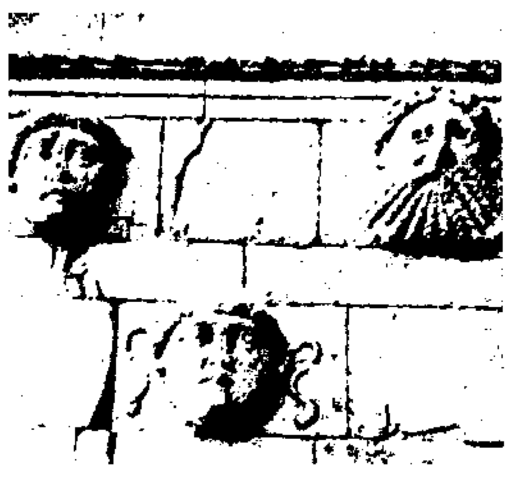
---

(١) تقع مدينة الحضر حالياً داخل الجمهورية العراقية على بعد خمسين ميلا غرب الموصل .



(شكل ١٣٨) معبد شاماش (مرن) كبير آلهة الحضر. القرن الأول أو الثانى الميلادى

(شكل ١٣٩) الجدار الخارجى لقصر مدينة الحضر وتظهر به زخارف بارزة لوجوه آدمية القرن الثانى . حالياً العراق



(شكل ١٤٠) زخارف جدارية بارزة على هيئة أشكال هندسية وجدت فى قصر بمدينة كوهى خاقاجا . القرن الأول



النحــــت :

لم يعثر للفنان الفرثى فى إيران على إنتاج كبير فى نحت تماثيل آدمية . وتعكس التماثيل التى تنسب إلى تلك الفترة صور الأجناس المختلفة التى كانت تحت حكم إيران فى العصر الفرثى . ومن أحسن الأمثلة تمثال من البرونز عثر عليه فى معبد فى مدينة شامى بولاية بختيارى (ش ١٤١) يرجع إلى القرن الثانى الميلادى ربما يمثل حاكم المدينة ، ويوضح هذا التمثال شكل الزى الفرثى . وتدل صناعة التمثال على مهارة فنية فى دراسة الجسد البشرى وفى إظهار ثنيات الزى .

ومن التماثيل التى عثر عليها خارج حدود الدولة ، تماثيل بالحجم الطبيعى عثر عليها فى مدينة الحضر ، تمثل الحكام والآلهة ونساء ورجال الحضر البارزين . ويظهر فى تمثال الملك أوتال (ش ١٤٢) اهتمام الفنان بتسجيل تفاصيل الزى الدقيقة ، كما يصور الملك رافعاً كف يده اليمنى علامة الطاعة للإله .

النحت على الأحجار :

سجل الفنان الفرثى على الصخور الموجودة فى إيران نقوشاً تصور مواضيع المثول أمام الآلهة والانتصارات التى أحرزها ضد الأعداء ، كما سجل مناظر الصيد والقنص هواية الملوك الفرثيين ، إلا أن هذه النقوش لم تتميز بدقة أو عناية . ويتضح ذلك من النقوش التى عثر عليها على صخرة فى جهة « تانجى سرواك » (ش ١٤٣) حيث نلاحظ أن نسب الأشخاص غير دقيقة فى الموضوع الدينى المسجل فى الصف الأعلى وفى موضوع الصيد المسجل فى الصف الأسفل . مما يدل على ضعف الفنان فى هذا النوع من الفن بصفة خاصة .

التصوير الجدارى :

استخدم الفرثيون التصاوير الجدارية الملونة فى زخرفة جدران القاعات الداخلية . وعثر فى مدينة « كوهى خفاجا » على قصر مزخرف أحد جدرانه بصورة الملك وملكة



(شكل ١٤١) أمير فرثى ، تمثال من البرونز عثر عليه فى معبد مدينة شامى ، القرن الثانى الميلادى ، متحف طهران



(شكل ١٤٢) تمثال أوتال أحد ملوك الحضر ، نقش اسمه على القاعدة . القرن الثانى الميلادى ، حالياً بمتحف مدينة الموصل



(شكل ١٤٣) صخرة بجهة تانجى سروال بإقليم خوزستان وبها نقوش بارزة فى صفين بموضوعات تدور حول أمير المقاطعة الذى يظهر بحجم أكبر فى الجهة اليسرى أواخر القرن الثانى الميلادى

يتوسطان بعض أفراد من الحاشيـة (ش ١٤٤). وصورة لثلاث الهة عـلى هيئة آدميين على جدار آخر. إلا أن هذه الجدران قد تداعت للأسف حاليًا.

ويمكن معرفة طراز هذه التصاوير ، من الصور الجدارية التي رسمت في مباني مدينة دورا أوربا بعد أن أخذها الفرثيون من السلوقيين حيث عثر على مشاهد مختلفة على جدران معبد شيد في القرن الأول بعد الميلاد يمكن نسبته إلى تلك الفترة. ومن أهم هذه التصاوير الموضوع الذى يصور احتفالاً دينياً ، (٤١) فنرى راهبين يرتديان زياً أبيض اللون يقومان ببعض الطقوس الدينية ويقف معهما شخص ثالث ويلاحظ في رسم الأشخاص وضع المواجهة الذى يتميز به الأسلوب الفرثى .



(شكل ١٤٤) تصوير جدارى عثر عليه بمدينة كوهى خافاجا
القرن الأول ق . م .

الفصل الثانى

الدولة الساسانية ـــ الفن الساسانى

تمهيد تاريخى :

تكون نظام شبه إقطاعى فى إيران بعد ضعف الدولة الحاكمة الفرثية ، وكان يحكم هذه الولايات أمراء من إيران يؤكدون نسبتهم إلى الأسرة الأكمينية . ثم تمكن « أردشير بن بابك بن ساسان »[1] أمير مقاطعة فارس من ضم الأمراء الفرس إليه وحارب « أرطبان الخامس » وقضى عليه عام ٢٢٦ م . وأسس أردشير (٢٢٦ – ٢٤١ م) دولة فارسية ساسانية ورثت جميع ممتلكات الدولة الفرثية فى إيران والعراق ، وجعل طيسفون العاصمة الشتوية للدولة الساسانية .

وقامت بين أردشير وبين الرومان مناوشات كثيرة استمرت فى عهد ابنه شابور الأول (٢٤١ – ٢٧٢ م) الذى حارب الرومان فى بلاد الشام ، وتمكن من تكوين إمبراطورية كبيرة بعد أن هزم الإمبراطور الرومانى فاليران فى موقعة إيداسا فى سنة ٢٦٠ م . ودخل أنطاقية وغنم منها غنائم كثيرة ، وقد اهتم شاهبور بتسجيل هذا الانتصار على الجبال فى إيران . إلا أنه انهزم أمام أذينة ملك تدمر فى عام ٢٦٥ م . وكان عهده ذهبياً ازدهرت فيه العلوم والأداب وظهر فى تلك الفترة مانى صاحب المذهب الدينى المانوى الإيرانى .

توالى على حكم الدولة الساسانية عدد من الملوك الضعاف إلى أن تولى الحكم شاهبور الثانى (٣١٠ – ٣٧٩ م) ، فحارب الإمبراطور قسطنطين وانتصر عليه وكانت المسيحية قد صارت دين الدولة الرسمى فى تلك الفترة ولقد صار سلطان الدولة الساسانية قوياً فى منطقة الشرق الأوسط بعدما امتدت أطراف الإمبراطورية مرة ثانية فى حكم شاهبور الثانى .

---

(١) أخذ ملوك الساسان اسمهم من جدهم ساسان الذى كان يشغل وظيفة رئيس معبد الآلهة أناهيتا فى إحدى الولايات الإيرانية فى عهد ملوك أسرة الفرثيين .

قويت شوكة القبائل العربية التي وجدت فى الشام فى تلك الفترة وأشهرهم الغساسنة الذين انتشروا فى وادى حوران جنوبى دمشق . وازدادت قوة الغساسنة وانتشر الدين المسيحى بينهم وساعدوا الدولة البيزنطية فى حروبها مع الساسانيين . واشتهرت فى الحيرة دولة المناذرة اللخمية ، وتقع مدينة الحيرة فى العراق على نهر الفرات بالقرب من الكوفة . وكان ملوك الحيرة فى صف الساسانيين يحاربون الغساسنة والبيزنطيين .

جدد الملك كسرى الأول (أنوشروان) (٥٣١ – ٥٧٩ م) بناء مدينة طيسفون (طاق كسرى) سنة ٥٤٠ م ، وفتح أنطاكية ، كما وسع الملك كسرى الثانى (أبرويز) (٥٩٠ – ٦٢٨ م) ممتلكات الدولة ، ففتح مصر واستولى على جزء من آسيا الصغرى وحاصر القسطنطينية مركز حكم الإمبراطورية البيزنطية . ولقد أرسل له النبي العربى محمد صلى الله عليه وسلم رسولاً يطلب منه الدخول فى الدين الجديد . إلا أن كسرى الذى غررت به الانتصارات رفض ولم يستمر فى الحكم طويلا ، حيث قتلة الملك البيزنطى هرقل الذى تمكن من محاصرة تسيفون بعد أن طرد الجيش الساسانى من مصر وآسيا الصغرى .

ولم يتمكن الملك يزد جرد الثالث (٦٣٢ – ٦٥١ م) من الوقوف فى وجه الجيوش العربية المتقدمة التى دخلت طيسفون بعد أن استولت على سوريا والعراق . واستغرق الفتح الإسلامى الفترة من عام ٦٤٢ م التى انتصر فيها الجيش العربى فى موقعة النهاوند إلى عام ٦٥١ م التى قتل فيها الملك يزدجرد . وبذلك انتهى الحكم الساسانى وبدأ العصر الإسلامى فى بلاد الشرق الأوسط .

كان سقوط أسرة إرشاق وإحلال الساسانيين محلهم فى إيران بداية لعصر جديد ازدهرت فيه مختلف الفنون الإيرانية . وليس من شك فى أن حضارة الساسانيين فى إيران والعراق هى امتداد للحضارات السابقة ولا سيما الفرثية . وورث الساسانيون كثيراً من التقاليد الفرثية كما استمروا فى اعتناق المعتقدات الدينية المعروفة فى إيران .

العمارة :

حاكى الساسانيون أسلافهم الفرثيين فى كثير من الفنون المعمارية وظهر ذلك

بصفة خاصة فى تصميم المدن وفى القصور . فاقتبس مؤسس الدولة أردشير فكرة تخطيط المدينة المستديرة التى وجدها فى الحضر عندما شيد مدينة مستديرة فى فيروز أباد ، كما نقل عن أسلافه فكرة القصر المستطيل .

وشيد سقف القاعة الكبرى المعروفة بالإيوان على هيئة قبة نصف كروية ، وتظهر بقية القاعات خلف الإيوان . ويوجد بالجدران الداخلية لهذا القصر حنيات ذات عقود منحنية ، كما يلاحظ فوق العقود زخارف بارزة من مادة جصية يظهر فى تصميمها الطابع المصرى (ش ١٤٥) .

كان من عادة الملوك الساسانيين أن يقوموا بتشييد قصور جديدة لهم بمجرد اعتلائهم الحكم . فشيد شاهبور الأول ثانى ملوك الساسان قصراً له فى بيشابور[١] الواقعة فى منتصف الطريق بين فارس مسقط رأسه والعاصمة طيسفون[٢] . وتعتبر ولاية فارس المنطقة الوحيدة فى إيران التى لم يظهر فى فنونها طابع الفن الهيلينى وذلك لوجود آثار من العهد الأكمينى فى مدن هذه الولاية هما باسرجداى وبرسيبوليس .

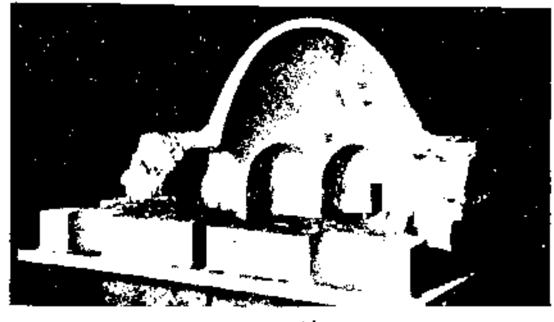
ولا يظهر أى اختلاف فى تصميم قصر بيشابور عن القصر السابق فالإيوان هو أهم قاعة فى القصر ، وسقفه على شكل نصف كرة . كما وجد بجدران هذه القاعة (ش ١٤٦ ا) أربع وستون حنية . ويغطى جدران القاعة والحنيات أفاريز من الملاط بها زخارف هندسية ونباتية بارزة يظهر فيها الأسلوب الهيلينى (ش ١٤٦ ب) .

ولقد زخرف الساسانيون قصورهم بزخارف بارزة عن الجدران فى أغلب الأحوال ، وتأخذ هذه الزخارف أشكالا متعددة ، نباتية أو حيوانية أو آدمية . ومن أشهر الوحدات التى انتشرت فى الفن الساسانى ، زخارف على هيئة وجه آدمى يتوسط مربع (ش ١٤٧) وهذه إحدى الوحدات التى انتقلت إلى مصر وظهرت فى الفن القبطى (ش ١٢٥) .

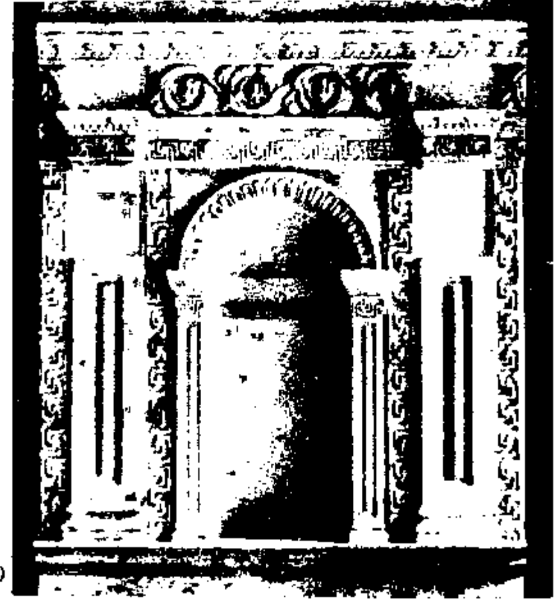
ويظهر فى ذلك العصر أسلوب جديد لزخرفة أرضية قاعات القصر ، حيث تغطى أرضية بعض القاعات بالزلط الملون فى أشكال زخرفية تبدو كأنها سجاد . وتظهر فى هذه الزخارف نوعان من العناصر . فى الجزء المتوسط توجد صور لسيدات من القصر وراقصات

(١) بيشابور تعنى شابور الجميلة .

(٢) عرفت عند العرب باسم المدائن .



(أ)



(ب)

(شكل ١٤٦أ، ب) نموذج للقاعة الكبرى فى قصر الملك شاهبور بمدينة بيشابور. وتظهر به زخارف جصية نباتية، فى حنية من جدار القصر. منتصف القرن الثالث الميلادى. حالياً بمتحف اللوفر



(شكل ١٤٥) جدار قصر مدينة فيروز أباد



(شكل ١٤٧) زخرفة جصية على الجدران يظهر بها وجه آدمى داخل مربع. متحف بغداد

وموسيقيات [لوحة ملونة رقم ٤] . أما وحدات الإطار الخارجى الملاصق للجدار ، فهى عبارة عن وحدات هندسية أو رءوس لنساء ورجال (ش١٤٨) .

وفكرة عمل زخارف برءوس آدمية لاتظهر فيها الأعناق هى أسلوب فنى إيرانى لم يعرف فى بلاد الإغريق أو عند الرومان . وينتشر هذا الأسلوب ويظهر فى مصر فى الفن القبطى (ش١٢٥) وربما يرجع هذا التأثير إلى فترة حكم الساسانيين لمصر فى أوائل القرن السابع الميلادى .

على أن طريقة تغطية الأرض بزخارف من الجص والزلط الملون لم تكن إيرانية ، بل أخذها الساسانيون عن الرومان الذين استعملوها بكثرة فى أرضيات قصورهم وحماماتهم . وفى الغالب قام بهذا العمل عمال من أنطاكية الرومانية حيث عثر فى هذه المدينة على أرضيات مغطاة بالفسيفساء مزخرفة بمواضيع متشابهة .

وقد ظل النمط المعمارى التقليدى لتشييد القصور مسيطراً على العمارة الساسانية فى كل العصور ، فلا يختلف قصر مدينة طيسفون (طاق كسرى) (ش١٤٩) عن القصور السابقة . وتظهر بالواجهة زخارف مكونة من أعمدة متصلة بالجدران وفتحات كاذبة . ويتميز هذا القصر بوجود عقود مستديرة تتوسط المبنى . ويعتبر طاق كسرى أكبر عقد شيد من الآجر غير المسلح فى العالم حيث يبلغ ارتفاعه ٣٠ متراً . وقد اقتبس الساسانيون من الرومان طريقتهم فى زخرفة واجهة المبانى بصفوف من الفتحات الكاذبة وأنصاف الأعمدة .

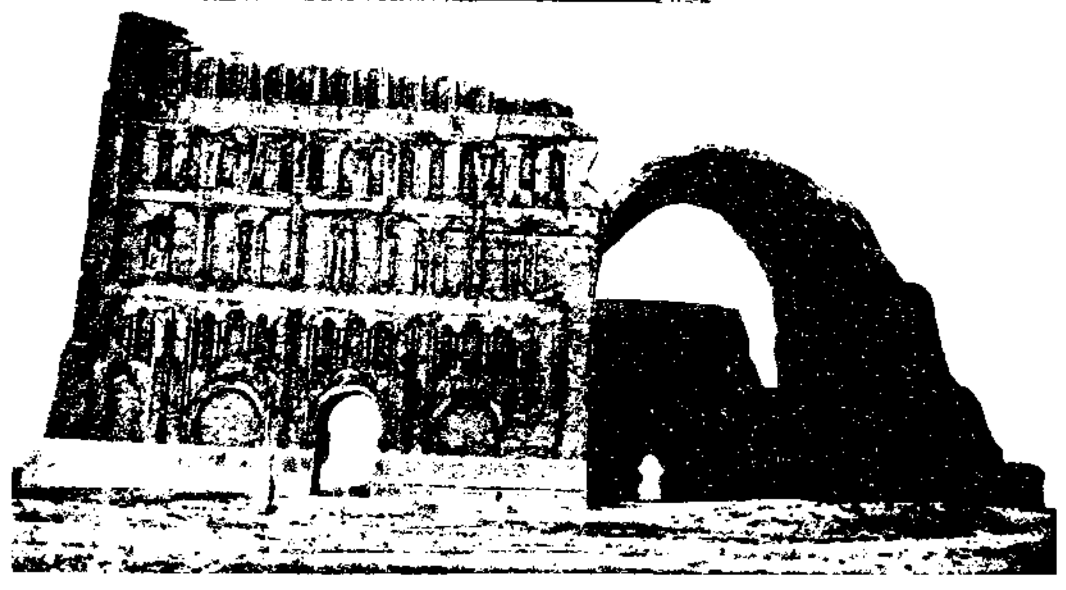
لم يظهر الساسان اهتماماً كبيراً بزخرفة الجدران بالتصاوير الجدارية ومن الحالات النادرة التى عثر عليها ، تصاوير وجدت فى قصر بمدينة سوسا . وتشتمل هذه الصور على صورة لفارسين مرسومين بالحجم الطبيعى يرتدى أحدهما زياً لونه وردى موشى بخيوط من الذهب . ومن أمامها حيوانات الصيد تلوذ بالفرار . ويظهر هذا المنظر فوق أرضية زرقاء . ويرجع تاريخ هذه الصورة إلى النصف الأول من القرن الرابع بعد الميلاد فى فترة حكم الملك « شاهبور الثانى » . والظاهر أن هذا الملك شجع هذا

(١) يرجع بعض الباحثين أن شابور الأول هو الذى شيد « طاق كسرى » .

(٢) كتاب الفن الفارسى « ا . بوب » . Survey of Persicn Ait.



(شكل١٤٨) فسيفساء، زخارف على هيئة رؤوس آدمية قصر بيشابور



(شكل١٤٩) طاق كسرى الموجود بقصر مدينة تسيفون. حالياً العراق



(شكل١٥٠) نحت بارز يصور فارسا يمتطي جواداً «ربما يصور الملك خسرو الثاني» عثر عليه في صخرة بجهة ناكي بستان. القرن الخامس. إيران

الأسلوب الزخرفى حيث عثر على قصر من عهده به تصاوير جدارية ملونة فى مدينة « إيوان كاركا » التى شيدها بعد أن دمرت مدينة « سوسا » .

النحت الكامل :

تشير الآثار التى عثر عليها فى إيران من فترة الحكم الساسانى إلى أن الملوك الساسانيين لم يعتنوا بفن النحت الكامل . ولقد لجأ الفنان فى حالات نادرة إلى عملية متوسطة بين النحت البارز والنحت المجسم . وظهر هذا الأسلوب فى جدار صخرة فى جهة « تاكى بستان » نشاهد فيها نحتاً بارزاً من سطح جدار يصور الملك ممتطياً جواده (ش ١٥٠) ويرجع هذا النحت إلى القرن الخامس الميلادى .

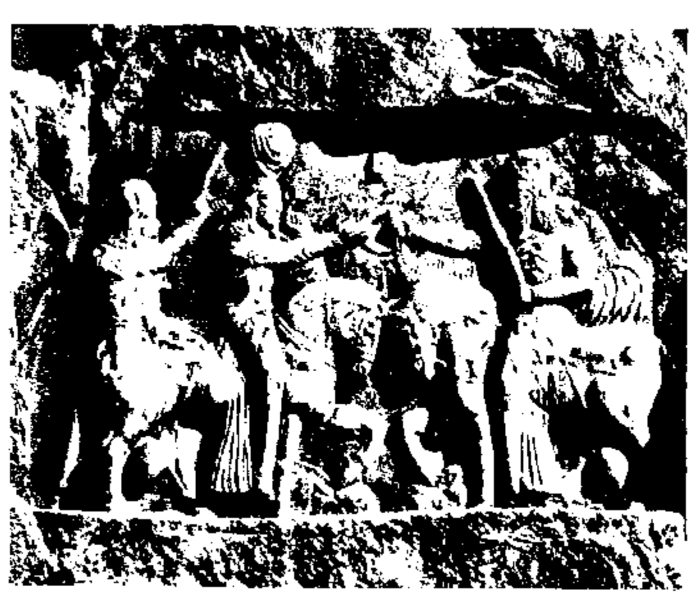
والتمثال الوحيد الذى نحت نحتاً كاملاً ويمثل الملك شاهبور الأول (ش ١٥١) ، يعتبر مكملا للعمارة ، حيث نلاحظ أنه نحت فى دعامة الكتلة الحجرية التى تحمل سقف مدخل أحد الكهوف المنحوتة فى الصخرة ، ويبلغ ارتفاع التمثال سبعة أمتار . وبالرغم من أن التمثال به محاولة لتوضيح زى الملك ، إلا أن نحته لايدل على مهارة . وكانت هذه الكهوف تنحت فى صخرة بالجبل ، ليوضع فيها مخلفات جثة المتوفى بعد أن تتعرض لأشعة الشمس فى أبراج أو أماكن فى أعلى الجبل . وكانت العظام تجمع فى توابيت بعد أن يتحلل الجسد لتوضع فى هذه الكهوف أو فى مبان تحت الأرض .

النحت البارز :

اتخذ ملوك الساسان الصخور العالية الموجودة فى بلادهم ليسجلوا عليها أحداثهم التاريخية الهامة . وكانت هذه الأحداث المصورة تشغل مساحات كبيرة على سطح الصخور . وتنحصر المواضيع فى مثول الملوك أمام الآلهة أو الانتصارات التى كسبوها . ويستمر ظهور مواضيع انتصار الملوك الساسانيين على الصخور حتى نهاية حكمهم . وقد اختار معظمهم الصخور التى نحتت بها مقابر الملوك الأكمينيين فى جهة « ناكش رستام » القريبة من برسيبوليس لتسجيل هذه المناظر .



(شكل ١٥١) تمثال أكبر من الحجم الطبيعي يصور الملك
شابور الأول عثر عليه في بيشابور



(شكل ١٥٢) الملك أردشير يتقلد الحكم من الآلهة أهورماردا . نقش وجد على صخور
بجهة ناكشي رستام . إيران ، القرن الثاني الميلادي



(شكل ١٥٣) الملك شاهبور
الأول منتصراً على الإمبراطور
الروماني فاليريان . نقش
وجد على صخور ناكشي
رستام إيران . النصف الثاني
من القرن الثالث الميلادي

ومن المواضيع الدينية التى عثر عليها فى جهة « ناكش رستام » ، نقش يصور الملك أردشير ممتطياً جواده يتقلد مقاليد الحكم من الإله أهورمازدا الذى يمنحه البركة ويعده بالانتصار على أعدائه (ش ١٥٢) . وترمز صورة الأشخاص الذين تطؤهم أقدام الجياد إلى انتصار إله الخير على إله الشر وانتصار الملك على أعدائه .

ولقد كان لنجاح شاهبور الأول فى هزيمة الأمبراطور فاليريان الرومانى صدى كبير فى إيران ، حيث سجل هذا الانتصار التاريخى العظيم على عدة صخور متفرقة فى إيران ويصور أحد هذه النقوش الموجودة فى ناكشى رستام الملك ممتطياً جوادة وأمامه الإمبراطور الرومانى راكعاً (ش ١٥٣) . وتبدو الثياب التى يرتديها الحكام وكأن الريح تدفعها . وهذا أسلوب ساسانى اقتبسه الفنان من ثنيات الزى الرومانى .

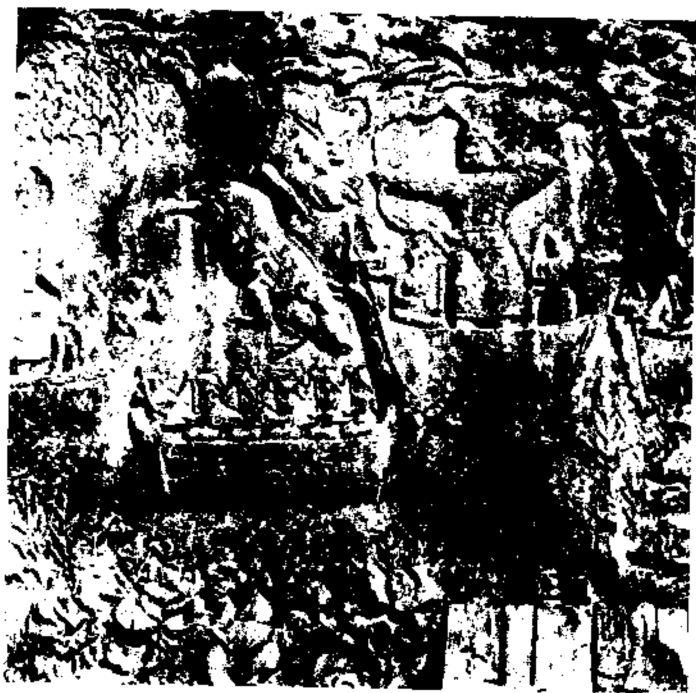
ومن المواضيع النادرة التى وجدت فى هذه النقوش موضوع يصور الملك خسرو الثانى يصطاد الحيوانات البرية . ولقد وجد هذا النقش على جدار مغارة فى جهة « تاكى بستان » ويرجع تاريخه إلى أواخر عهد الدولة الساسانية . ولقد صور الملك ثلاث مرات فى هذه اللوحة ، فنى الجهة اليمنى العلوية يشاهد ممتطياً جواداً ومن خلفه تابع يحمل مظلة تقى الملك من حرارة الشمس ، ويظهر مرة ثانية على اليمين يصطاد الغزلان ، ومرة ثالثة نشاهده فى قارب مصوباً سهامه إلى الخنازير البرية (ش ١٥٤) وتصحبه قوارب بها عازفات . ويلاحظ فى هذه الصورة أنها نقشت ببروز خفيف خلافاً لما كان متبعاً فى المناظر الأخرى .

ولقد أمكن التعرف على شخصيات الملوك المختلفة بمقارنتها مع صورتهم المنقوشة على العملات الفضية الخاصة بكل منهم ، كذلك يشكل غطاء الرأس الذين كانوا يظهرون به (ش ١٥٥) حيث اختلف هذا التاج اختلافاً طفيفاً فى زى كل ملك من الثمانية والعشرين ملكاً الذين حكموا إيران فى العصر الساسانى .

الفنون الصغيرة :

المعادن :

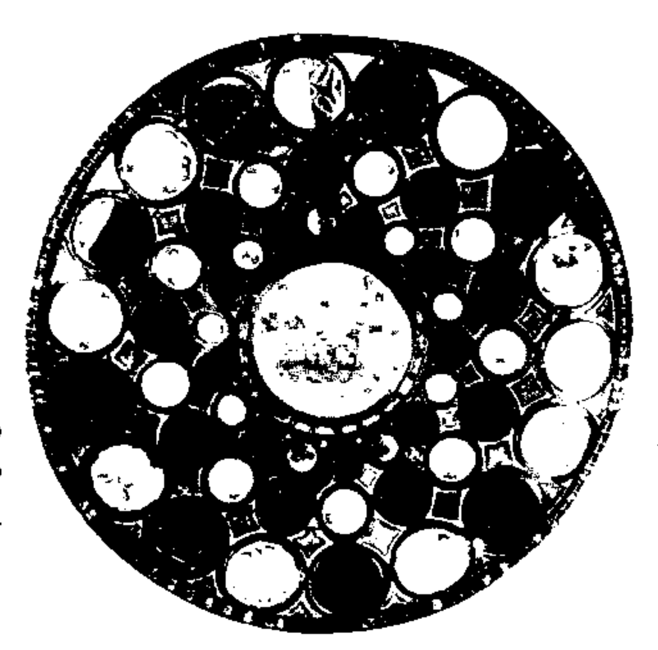
كانت المصنوعات الفضية من أجمل ماأنتجه الساسانيون من الفنون ، وتعكس



(شكل ١٥٤) الملك خسرو الثانى يصطاد الغزلان البرية والخنازير . نقش وجد على صخور تاكى بستان إيران القرن الخامس ميلادى



(شكل ١٥٥) قطعة معدنية تصور ملك ساسانى



(شكل ١٥٦) طبق من الفضة به نقش يصور الملك والملكة جالسين . القرن السادس أو السابع الميلادى . حالياً بمتحف مدينة بلتيمور . الولايات المتحدة

الأوانى والأطباق الفضية المنقوشة بمواضيع من داخل القصر أو خارجه ، الرخاء الذى كان سائداً فى القصور الساسانية ، كما توضح حب الحكام للاستمتاع بالحياة . وقد غطى بعض هذه المصنوعات بطبقة من الذهب كما رصعت بعض الأطباق بالأحجار الملونة (ش ١٥٦) .

وتأخذ مواضيع الحفلات والصيد مكان الصدارة فى الأطباق فيظهر الملك عادة جالساً على العرش الساسانى محاطاً بأتباعه ، وقد تراه مضطجعاً على أريكة ومعه الملكة (ش ١٥٧) وإظهاراً لعظمة الملوك الساسان كانوا يظهرون على الأطباق الفضية جالسين على عروش تحملها الأسود أو الجياد المجنحة (ش ١٥٦) ويظهر الملك دائماً فى وضع الواجهة كما تظهر الراقصات أيضاً منقوشة على بعض الأوانى يحيط بها تفريعات نباتية (ش ١٥٨) .

ومن الموضوعات التى كثر ظهورها على الأطباق الساسانية ، موضوع صيد الوحوش فيصور الملك تارة ممتطياً جواده مطارداً حيوانات الصيد المختلفة ، وتارة أخرى يصور وهو يصوب سهامه على الأسود المهاجمة بشجاعة فائقة (ش ١٥٩) وتذكرنا التفاتة الملك إلى الخلف بمناظر صيد الأسود الآشورية . كما أن شكل لفافة النسيج التى تتطاير من غطاء الرأس تنتشر فى فنون البلاد الأخرى ونراها فى الفن القبطى . لرأس جواد يظهر ويظهر اهتمام ملوك الساسان بزخرفة جيادهم فى قطعة معدنية (ش ١٦٠) .

المنسوجات :

برع الساسانيون فى صناعة المنسوجات الحريرية ، وكانت هذه المنسوجات تصدر إلى العالم البيزنطى وعن طريقها انتقل كثير من الوحدات الزخرفية الساسانية إلى منسوجات هذه البلاد

ولقد تفنن النساج الساسانى فى زخرفة منسوجاته بوحدات ساسانية مبتكرة ، ومن أهم هذه الوحدات وحدة حيوانية ورثها الفنان من الفنون السابقة ، وتبدو هذه الوحدة على هيئة حيوان خرافى نصفه الأمامى حيوان مجنح ، والجزء الخلفى ذيل طائر . ويكثر ظهور هذه الوحدة الزخرفية ، فنراها فى زخارف المنسوجات (ش ١٦١)



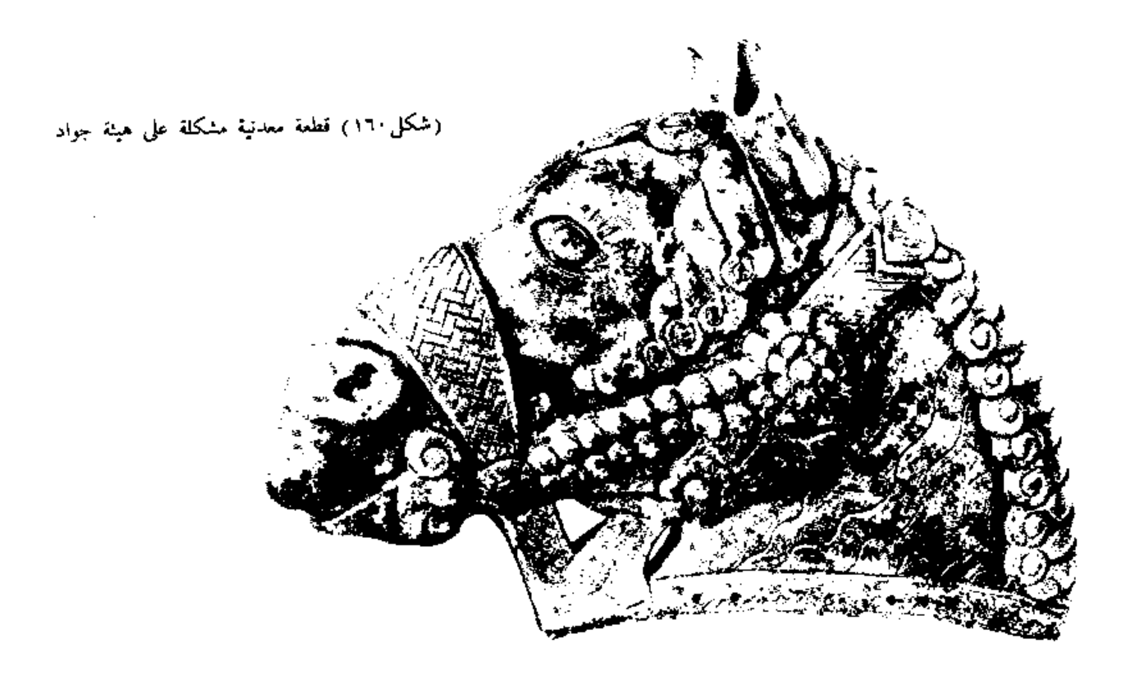
(شكل١٥٨) جزء من إناء فضى مذهب مزخرف بنقوش نباتية تحيط بعضها براقصات عثر عليه فى مدينة كلاردشت إيران القرن السادس الميلادى. حالياً بمتحف طهران



(شكل١٥٧) طبق من الفضة المزخرف بقطع من الزجاج الملون تصور الملك جالساً على عرشه



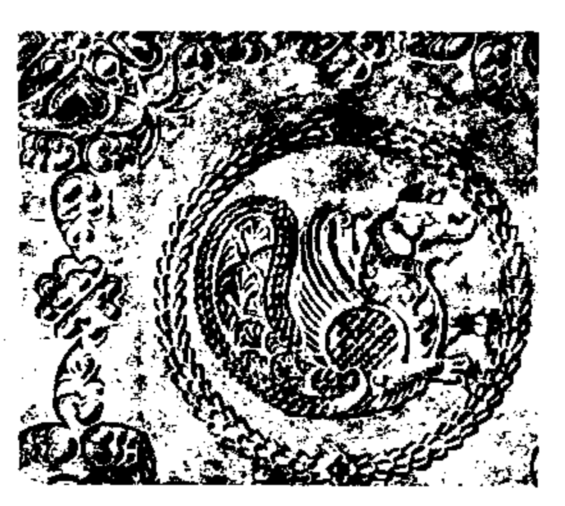
(شكل١٥٩) طبق من الفضة منقوش بموضوع يصور الملك شاهبور الثانى يصطاد الأسود. القرن الرابع. حالياً متحف الارمتاج. لننجراد



(شكل ١٦٠) قطعة معدنية مشكلة على هيئة جواد



(شكل ١٦١) قطعة نسيج حريرية مزخرفة بوحدة حيوان السمرج



(شكل ١٦٢) نقش بارز بوحدة حيوان السمرج الخرافى . وجد بين زخارف زى الملك خسرو فى منظر صيد الغزلان والخنازير بجهة تاكى بستان . إيران

التي تفوقوا صناعتها لدرجة كبيرة ، كما تظهر هذه الوحدة فى زخارف زى الملك خسرو وهو يصطاد (ش ١٦٢) . المنقوشة على صخرة فى جهة تاكى بستان .

وقد كان الملوك العرب التدمريون يستعينون بمصانع النسيج الساسانية . واستمر ظهور الوحدات الساسانية فى زخارف المنسوجات السورية وفى النسيج البيزنطى بعد سقوط الإمبراطورية ، ووصلت هذه المنسوجات إلى الغرب كلفافات للآثار ، ونجدها حالياً موزعة على المتاحف (ش ١٦٣) . ولقد تأثر النساجون فى مصر بهذه الوحدات خاصة فى الفنين القبطى والإسلامى .

وترجع أهمية الفن الساسانى إلى إمداده الفنين البيزنطى والإسلامى بكثير من عناصره ، حيث اقتبس الفنانون فى العهود الإسلامية كثيراً من العناصر الساسانية . ويظهر ذلك بصفة خاصة فى الآثار التى عثر عليها فى العهدين العباسى والفاطمى .



(شكل ١٦٣) قطعة من الحرير مزخرفة بوحدة طائر فى دائرة متكررة . متحف الفاتيكان بروما

المراجع

Demus O. Byzantine Mosaic Decoration London 1941.

Grabar A. Byzantine Painting 1953 Skira.

Gruneissen W. Les Caracteristiques de L'art CopteFlorene 1922.

Millngen E. Byzantine Churches in Constantinople. 1912.

Fakry A.Bagawat in kherge Oasis.

Manneret de Villard, La scalpturad Ahnas.

Price D. Talbot, Art of the Byzentine Ers 1963, Thames and Hudson.

The Art of Byzantium, Abrams New York 1959.

Ressicun icons 1963 Spring books.

Byzantine Art Penguin Books 1968.

Phister Textiles of Palmyra.

Smith, Earl Balduin, the Done, Princeton University Press 1950.

Swift. E. Hagia Sophia, Columbia University Press 1940.

Volbaeh W.H.M., Early Christian Art Abrams, New York, 1961.

Whitlemore T. The Mosaics of Hagia Sofia at Istanbul 1935—52. Oxford.

Claus W. L'Art Copte, Editions Meddens Bruxelles 1964.

مراجع الباب الثالث

Pope, Arthur Upham, Masterpicces of Persian Art Dryden Press, New York, 1945 and Ackerman, Phyllis, "A Survey of Persian Art from Prehistoric times to the present, Vols, American Institute for Iranian Art and Archeology, Oxford University Press New York, 1938—39.

Girshman, R. Parthes et Sassanides Iran from the earliest times to the Islamic Conquest 1961 Richhard clay and Comp. Ltd. England.

مراجع الباب الأول

Baur, P.V.C. & M.I. Rostovtzeff, Excavatons at Dura Europos. Pre. Reports, nos 1 (1929), 2 (1931) New Havan Conn.

Bowen R. Archaeological Discoveries in South Arabia Baltimore, 1958.

Bieber, Margarete, The Sculpture of the Hellenestic Age, Columbia University Press 1961.

Kemmerer A. Petra et la Nabatine, Paris 1929.

Kennedy A.B. Petra its History and Monuments, London 1925.

Rostovtzeff, M. Dura Europos and its Art. Clarendon Press Oxford 1938 U.P.

Caravan Cities Oxford 1932.

Seyvig, H. Ingholt H. Starcky J. Recueil des trésor de Palmyre Paris 1955.

Shore A.F. Portrait Painting From Roman Egypt. The British Mus. London 1962.

Huyghe R. Larousse Prehistoric & Anered-Art Wooley L. The Art of the middle East. Crown Publishers, inc. New York.

مراجع الباب الثانى

Anthony, E., A History of Mosaics, Sargent, Boston, 1935.

Badaway, A. L'Art Copte, Le Caire 1949.

Bovini, G. Revence Mosaics 1956, New York, Graphic.

Beekwith J. The Art of Constantinople 1961 Phaidon, New York.

Coptic Sculpture.

Butler H. Coptic Churches.

Early Churches in Syria 1929 Princeton.

Crawfoot, J. Early Churches in Palestine 1947 Oxford U.P. For the British Academy.

Dalton O. Byzantine Art & Archeology, Clarendon Press. Oxford 1911.



كتب أصدرتها دار المعارف للمؤلفة

فنون الشرق الأوسط القديم

فنون الشرق الأوسط والعالم القديم . طبعة أولى وثانية

فنون الشرق الأوسط من الغزو الأغريقى حتى الفتح الإسلامى

فنون الشرق الأوسط فى العصور الإسلامية . طبعة أولى وثانية

فنون الغرب فى العصور : الوسطى . النهضة . الباروك

فنون الغرب فى العصور الحديثة

فنون العراق القديم . سلسلة كتابك

رقم الإيداع	٢٠٠٥/٢٠١٩١
الترقيم الدولى	ISBN 977-02-6853-4

١/٢٠٠٥/٥٤

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)